ابن خلدون

حياته وتراثه الفكري

تأليف

محمد عبد الله عنان
المحامي

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

ابن خلدون

حياته وتراثه الفكرى

ابن خلدون

حياته وتراثه الفكرى

تأليف

محمد عبد الله عنان

المحامى

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

ما زال تراث ابن خلدون فريدا بين آثار التفكير الإسلامى ، ومازال يحتفظ رغم كر العصور بكل قيمته وروعته وجدّته ، و يتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمى . ولكن ابن خلدون الذى اكتشفه الغرب وعكف منــذ أكثر من قرن على دراســة آثاره ونقــدها وتحليلها ، يُغمط فى الشرق حقــه ، و يغمر ذكره ، وينسى تراثه . و بينما ظهرت فى الغرب عنــه وعن تراثه تراجم وبحوث نقــدية عديدة ، اذا به لا يكاد يظفــر بشىء من ذلك فى الشرق موطنــه وصاحب تراثه .

وقد كان ممــا يدعو الى الغبطة أن ذُكر ابن خلدون أخــيرا ، وترددت الدعوة لإحياء ذكراه لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده ؛ فاستجابت دوائر التفكير والأدب فى جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للاشادة بذكره وخالد آثاره ، ولا سيما فى تونس مسقط رأســه ومطلع مجــده ، وفى مصر مقام

شيخوخته ومثوى رفاته ، وحفلت المجلات والصحف العربية حينا بمختلف البحوث عنه ؛ وبذلك مثلت ذكراه قوية بيننا مدى حين ، والتفتت الأنظار نوعا الى قراءته ودرسه .

ولما كان ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين عرفتهم وقرأتهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهنى بطابع عميق ؛ وكان فى مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمته ، فإن هذه الدراسة التى أقدمها اليوم للتعريف بابن خلدون وتراثه ، إنما هى وفاء التلميذ لأستاذه ؛ التمست لكتابتها هذه الذكرى الستمائة لمولد المؤرخ والفيلسوف العظيم ، وكنت أعتزم أولا أن أقدمها باسم "ذكرى ابن خلدون" ولكنى خشيت ألا يدل اسم الكتاب على حقيقة محتوياته فآثرت أن أقدمه باسمه الحالى .

وقد عنيت بأن أتتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصّل الحوادث السياسية التى اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته قطعة من تاريخ الدول المغربية فى أواسط القرن الثامن ، فقد رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها فى هذه الحقبة وأن أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون فى مصر عناية خاصة ففصّلتها تفصيلا وافيا ، وشرحت علائق المؤرخ بالمجتمع المصرى المفكر ، وما وقع بينه و بين الكتاب المصريين من صنوف الخصومة والجدل ، شرحا ضافيا .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض والشرح المرسل ، ورأيت أن اجتنب الجدل والمقارنات المعقدة، مع حرصي فى الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد . وقصدى بما كتبت فى ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى اذا وقف عليه واستطاع أن يسيغه وأن يقدره، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه و يدرسه بإمعان وافاضة . أما دراسة البحث الغربى لابن خلدون، وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد افردت له فصلا خاصا يضم خلاصة وافية لكل ما كتب فى ذلك الشأن .

كذلك رأيت أن أضع بيانا فهرسيا عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التى مرّ بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التى رُجع إليها فى نشره، وما تُرجم منه الى مختلف اللغات الأوربية، وما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكاتب . وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التى رجعت اليها، والتى يُدرس فيها ابن خلدون وأثره، لكى يرجع اليها من شاء التوسع والمزيد .

ان ابن خلدون على قِدَمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذا لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ

الشباب مقدّمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مرارا وتكرارا ، لا ليعجب فقط بما حوت من رائع التفكير والبحث ، ولكن أيضا ليستقى منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الإجتماعية التى تجول بذهنه وكثيرا ما يتعثر فى التعبير عنها ؛ ذلك أن مقدمة ابن خلدون اذا كانت ثروة لا تقدر فى تراث التفكير العربى ، فهى أيضا ثروة لا تقدر فى تراث البيان العربى .

فإلى الشباب المثقف فى مصر ، وفى جميع البلاد العربية ، أقدم هذه الدراسة لشخصية ممتازة فى التفكير الاسلامى ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله الى وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربى وتقديره ، راجيا أن يجد الشباب فى هذه الدراسة ما يحفزه الى قراءة ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفيس تراثه

القاهرة فى أواخر اكتوبر سنة ١٩٣٣ — محمد عبد الله عنان

المحامى

الكتاب الاول

حياة ابن خلدون

١

في المغرب والأندلس

٧٣٢ — ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ — ١٣٨٢ م

الفصل الاول

نشأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتهم بالأندلس وظهورهم فى ميدان الرياسة . نزوحهم الى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الفناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة فى بلاط تونس .

كان العام الماضى مبعث ذكرى خالدة فى التفكير الإسلامى : تلك هى انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسى والفيلسوف الإجتماعى . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تتبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فجدير أن تكون هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه (١)، ودوّن لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيرا من خلاله وخواصه ونواحى نفسه ؛ وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التى تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمترجمه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ؛ وفى هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو أخصب

---

(١) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

مصادرنا وأهمها فى كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث المادية ؛ فاذا لم تك ثمة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث، فهنالك دائما وجهة التقدير واستخلاص النواحى المعنوية ؛ وهنالك اختلاف الفهم والعَرْض . واذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التى ارتبطت بهذه السيرة، فإنه يعرضها طبقا لفهمه ووجهة نظره، وقد يتأثر عرضه فى كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى . وتحرى الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فإذا كنا نغتبط بهذا التراث الذى تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه ما يسهل مهمة ترجمته ، فإنا قد نشعر من جهة أخرى بالحرج فى كثير من المواطن التى نلمح فيها أثر العاطفة والهوى .

واذاً فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الاولى فى ترجمته ؛ ولكنه لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهنالك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته فى مصر . وسوف نستشيرها جميعا . وسنتتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله . ولكنا سنحاول ان نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة، وأن نستخلصها من مختلف المؤثرات والأهواء .

— ١ —

ولد ابن خلدون بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) فى أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهو ولىّ الدين عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن

ابن خلدون . ويُرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية فى حضرموت، ونسبه الى وائل بن حجر، ويعتمد فى ذلك على رواية النسابة الأندلسى ابن حزم[١]؛ غير أنه يشك فى صحة هذه السلسلة، ويعتقد أن أسماء منها قد سقطت، لأنه اذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عند الفتح، فان عشرة أجداد لا تكفى لقطع ستة قرون ونصف، التى انقضت منذ الفتح حتى مولده، وفى رأيه أنه يجب لقطعها عشرون باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن. وأما نسب جده خلدون الداخل إلى الأندلس، فهو كما روى ابن حزم أيضا، خالد المعروف بخلدون بن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر . فابن خلدون طبقا لهذه النسبة سليل أصل من أعرق الأصول العربية اليمانية؛ ولكن هنالك ما يحمل على الشك فى صحة هذا النسب البعيد الذى يدونه ابن حزم لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى، ويقوى هذا الشك لدينا ما نعرفه من ظروف الخصومة والتنافس بين العرب والبربر فى الأندلس؛ فقد اشترك البربر فى فتح الأندلس، وقاموا بمعظم أعبائه، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم؛ واستمرت الخصومة بينهما أحقابا طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية، وبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة فى الأندلس شرفا يُرغب فى الانتساب إليه، لما كان لها من السيادة والنفوذ؛ ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة؛ بل لقد تطرق هذا الشك الى أنساب زعماء

---

(١) توفى ابن حزم سنة ٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م .

الفاتحين أنفسهم ، فقيل عن طارق بن زياد، إنه من البربر وقيل إنه فارسى من موالى العرب . وهنالك أيضا ما يبعث على التأمل فى تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية، وهو أنه فى مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الخصومة والتحامل، بينا نراه فى مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر و يشيد بخلالهم وصفاتهم[١] .

وعلى أى حال فان ابن خلدون ينتمى الى بيت من بيوت الرياسة فى الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الاندلس فى جند اليمانية ونزل أولا فى مدينة قرمونة، ونشأ بها بيته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية . ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا فى أواخر القرن الثالث فى عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموى (٢٧٤ — ٣٠٠ ﻫ)، ففى عهده اضطرمت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحى ؛ وكانت إشبيلية فى مقدمة المدن الثائرة؛ ثار بها أمية بن عبد الغافر، وعبد الله بن الحجاج ، وكريب[٢] وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد بها ، وقتل ابن الحجاج ؛ فثار عليه بنو خلدون و بنو الحجاج، واشتدوا فى مناوأته، وقاتلوه حتى قتل؛ واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج ،وتحالف زعيمهم ابراهيم مع ابن حفصون

---

(١) سنعرض الى ذلك فى فصل قادم .

(٢) وردت فى التعريف (كريت) — كتاب العبر، ج ٧ ص ٣٨٠ . ولكن الأرجح انها كريب .

أعظم ثوار الأندلس يومئـذ والمتغلب على جنوبهـا ما بين مالقة ورندة، فخشى كريب أمره وأشركه معه فى حكم إشبيلية . وكان كريب صارما شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا الى ابراهيم لمـا رأوه من رفقه ولينه ؛ واتصـل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سرا على عهد بولاية إشبيلية ، ثم ثار فى أهل المدينة بكريب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهـد الدولة الأموية ؛ ولكن دون زعامة أو رياسة، حتى كان عهدالطوائف واستيلاء ابن عباد على إشبيلية؛ فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية،ورقت الى مراتب الرياسة والوزارة فى دولة بنى عباد، وشهد زعماؤها موقعة الزلّاقة الشهيرة التى انتصر فيهـا ابن عباد وحليفه يوسف بن تاشفين المرابطى على ألفونسو السادس ملك قشتاله (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) واستشهد جماعة منهم فى الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعا، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ؛ ثم قام الموحدون بالمغرب وانتزعوا الأندلس من المرابطين؛ واقطعوا زعماءهم الولايات والمدن،فولى على إشبيليه وغرب الأندلس أبو حفص زعيم هنتاتة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصـل بنو خلدون بالولاة الجدد، واسـتعادوا قسطا من الجاه والرياسة .

ولمـا اضمحلت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس، وتضعضعت قواعدها وثغورها وأخذت تسقط تباعا فى يد ملك قشـتالة ، نزح الأمير أبو زكريا الحفصى حفيـد أبى حفص الى إفريقية سـنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى

عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشي بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية قبل أن تقع في يد النصارى، ونزلوا حينا بسبتة، فأكرمهم حاكمها الحفصي ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ بالأمير أبي زكريا في مدينة بونه، فأغدق عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفي الأمير زكريا وخلفه ابنه المستنصر، فولده يحيي ، فأخوه إسحاق؛ وبنو خلدون خلال ذلك ينعمون بالجاه والسعة . وفي عهد أبي إسحاق ، ولي أبو بكر محمد ابن خلدون جد المؤرخ الثاني شئون الدولة ، وولي ولده محمد جد المؤرخ شئون الحجابة حينا لأبي فارس ولد أبي اسحاق وولي عهده، وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب مُلْك بني حفص، وثار بهم زعيم يدعي ابن أبي عمارة وتغلب على تونس، واعتقل أبا بكر ابن خلدون وقتله وصادر أمواله ؛ وبقي ولده محمد في بلاط بجاية، وخاض غمار المعارك التي نشبت يومئذ بين بني حفص والخوارج عليهم ؛ ولبث يتقلب في ظل بني حفص في مراتب الدولة . ثم غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيي اللحياني سنة ٧١١ هـ فقربه وتولى حجابته حينا . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقي مع ذلك على مكانته ونفوذه في الدولة حتى توفي سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) .

أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ، فقد زهد في الحياة السياسية، وآثر حياة الدرس والعلم، وبرز في الفقه وعلوم اللغة، ونظم الشعر. وتوفى إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وله من الولد عدّة : أبو زيد ولي الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ فتى يافعا في الثامنة عشرة، وعمر وموسى ويحيي ومحمد وهو أكبرهم،

ولم يظهر منهم الى جانب المؤرخ سوى يحيي الذى تولى الوزارة فيما بعد[١].

— ٢ —

كان ابن خلدون اذًا سليل أسرة عريقة نابهة، وبيت علم ورياسة، فنشأ فى مهاد هذا التراث الذى تلقاه عن أسرته، تهديه جدودها وتقاليدها، ودرج فى حجر أبيه، فكان معلمه الأوّل؛ وقرأ القرآن وحفظه، وتفقه فى القراءات السبع، ودرس شيئا من التفسير والحديث والفقه، ودرس النحو واللغة، على أشهر أساتذة تونس. وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب فى بلاد المغرب؛ وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن. ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته فى كل علم وفن، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم؛ ويذكر لنا أيضا أسماء بعض الكتب التى درس فيها. ويبدو مما كتبه فى ذلك أنه تخصص نوعا فى درس الحديث والفقه المالكى، وعلوم اللغة والشعر[٢]. ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية؛ وينوه ابن خلدون بتفوقه فى درسهما[٣]، وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه[٤].

وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة. وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التى نكبت

---

(١) ذكر ابن خلدون اخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من «التعريف»

(٢) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥

(٣) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١.

(٤) من الإجازة وهى شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه بنجاح.

العالم الاسلامى كله من سمرقند إلى المغرب ، ونعنى بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ؛ وهو نفس الوباء الفاتك الذى عصف يومئذ بايطاليا ومعظم الأمم الأوربية ، والذى ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور [١] . وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب معا سنة ١٣٤٩ م (٧٤٩ هـ) ، وهلك فيها والدا المؤرّخ وجميع شيوخه ومعظم سكان تونس . ويشير ابن خلدون إلى تلك النكبة غير مرة فى لهجة مؤثرة فيقول إنها : «طوت البساط بما فيه» ، وفيها : « ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله » ، ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار فى الدرس ، فعوّل على النزوح إلى المغرب الأقصى حيث نزح بعض شيوخه وأصحابه ، فردّه عن ذلك أخوه الأكبر محمد . ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت له فرصة النزول إلى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن محجوره وأسيره السلطان الفتى أبى اسحاق ؛ وكتابة العلامة هى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ؛ وكان المؤرّخ يومئذ حَدَثا فى دون العشرين .

---

(١) تناولنا تاريخ هذا الوباء ووصف مناظره فى الشرق والغرب فى فصل خاص فى كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

الفصل الثانى

ابن خلدون فى بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية فى القرن الثامن . بنو حفص و بنو عبد الواد و بنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلاؤه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية فى هذا العصر . تأثر الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون فى النزوح إلى المغرب . فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبى عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطماعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالتآمر . سجنه ومحنته . افراج الوزير حسن بن عمر عنه وردّه الى وظائفه . انتهازه للفرص وانقلابه على الوزير عمر . دعوته للسلطان أبى سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبى سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره فى هذا العهد . ولايته لخطة المظالم . سقوط أبى سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر ابن عبد الله على الدولة . انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النفرة بينه وبين الوزير . اعتزامه الرحلة الى الأندلس .

— ١ —

ويجدر بنا قبل أن نتتبع المؤرخ فى أدوار حياته العامة ، وتقلباته فى دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحا للثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات و إمارات عديدة . فقامت فى تونس

(إفريقية) دولة بنى حفص، وقامت دولة بنى عبدالواد فى تِلِمْسان والمغرب الأوسط، وقامت دولة بنى مَرِين فى فاس والمغرب الأقصى . وقامت فى ظل هـذه الدول وخارجها إمارات صغيرة فى بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء. وكان أكبر غنم فى تراث الموحدين لبنى مرين؛ وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدة وأقواها، تشمل المغرب الأقصى وسبتة وجزءا من المغرب الأوسط وأحيانا جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى غزا الأندلس أكثر من مرة، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م). وتعاقب من بعده على العرش عدّة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس فى العصر الذى نتحدّث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) . وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة . ففى سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتتح ثغوره تباعا من يد بنى عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدّت دولة بنى مرين شرقا حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بنى حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إليها فى أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنه السلطان أبى عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبى يحيى ؛ ولبث نحو عامين فى تونس يوطد شئونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه إلى المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، و بلغه تحفز ولده السلطان أبى عنان لانتزاع العرش ، فاختار ولده الفضل لولاية تونس ، وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى . وفى ذلك الحين كان بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم الثغور و بايعتهم ؛ فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى الفضل بن السلطان أبى يحيى ، واستولى عليها ، واستعاد مُلْك أسرته . ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله بن تافراكين ، وانتزع منه العرش وأقام فيه أخاه الطفل أبا اسحق بن أبى يحيى فى كفالته وتحت استبداده ، وذلك فى أوائل سنة ٧٥١ هـ .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية فى منتصف القرن الثامن الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لاتنقطع ؛ والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم إمارات صغيرة متعاقبة ، فى القواعد والثغور الوسطى مثل بِجاية وقُسَنْطينة ، و بونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها ، فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها فى يد القدر ؛ وكانت قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ومكمن الدسائس والمكايد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين فى طلب الرياسة والملك ؛ وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة تسطع فى فترات السلم القليلة ، وتتنافس فى البهاء والبذخ ، وتجتذب

اليها رجال التفكير الأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم ويتقلبون فى نعمهم ؛ ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ فى تاريخ المغرب فى هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر وتتنقل طبقا لأحوال الدول وتقلباتها ، وانها كانت كالدول دائمة الاضطراب والتنقل ، وانها لاتكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال . وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ فى المغرب دائمة الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائمة التردد بين المغرب والأندلس . وكانت غرناطة لاتزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصا بعد أن قَصّت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على معظم ثغورها وقواعدها ؛ ولذا نرى كثيرا من علماء الأندلس وأدبائها ينزحون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقا وأوفى طمأنينة وأيسر رزقا

فى معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنو خلدون مذ نزحوا الى إفريقية فى أواسط القرن السابع يستظلون برعاية بنى حفص وينعمون فى ظل دولتهم بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ فى دور انحلالها ؛ وفقدت أسرة المؤرخ كثيرا مما كانت تتمتع به من الجاه والرزق ؛ وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب إلى اجتناء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب ، وكان رأسه الفتى يضطرم بلا ريب بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة للنزول

إلى ميدان الحياة العامة ، حينما استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا لكتابة العلامة عن محجوره السلطان أبى اسحاق ، وذلك فى أواخر سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م). ولكن ابن خلدون كان ينظر إلى ضعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والجزع . وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم ؛ ولما غادر السلطان أبو الحسن تونس إلى المغرب الأقصى ، غادرها فى ركبه معظم المفكرين والأدباء من شيوخ ابن خلدون وأقرانه ، إيثارا للعيش فى ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحا إلى اجتناء الجاه والرزق بعد أن نفقت سوقهما فى تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ ، ولكن أخاه الأكبر صده حينا عن تحقيقها ؛ فلما استدعى لكتابة العلامة أخذ يترقب الفرص للنزوح إلى المغرب الأقصى ليبحث وراء طالعه وليعالج تحقيق أطماعه حيثما يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى .

— ٢ —

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ؛ ففى أوائل سنة ٧٥٣هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى فى قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين . فسار ابن تافراكين فى جنده الى لقائه وصحبه ابن خلدون فى ركبه . ووقعت بين الفريقين عدّة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس ؛ وانسل ابن خلدون خلسة من المعسكر المهزوم ناجيا بنفسه ، وأقام

حينا فى أبة عند بعض شيوخ المرابطين ؛ ثم قصد سبتة، ثم ارتد الى قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس، وكان يحاصرها عندئذ أمير قسنطينة؛ ومن هنالك سار معهم الى بِسْكِرَة وقضى بها الشتاء.

وفى ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى قد توفى (فى ربيع الثانى سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان أبى عنان عليه واستيلائه على فاس. وكان أبو عنان أميرا وافر البأس والعزم فما كاد يستقر على عرش أبيه، حتى أخذ يهيء العدّة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التى افتتحها أبوه من يد بنى عبد الواد ثم استعادوها لأعوام قلائل. فزحف عليها فى أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد؛ ثم استولى على بجايه بدخول صاحبها فى طاعته. وكان ابن خلدون يومئذ فى بسكرة كما قدمنا، فسعى الى لقاء السلطان أبى عنان أثناء مقامه بتلمسان؛ ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن يحتسب، ورده مع حاجبه ابن أبى عمرو الى بجاية حيث شهد مراسيم البيعة والتسليم. فلما عاد الحاجب الى السلطان، وهرعت معه الوفود الى ركابه سار ابن خلدون معهم وحظى بلقاء السلطان وكرم وفادته مرة أخرى. ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه، وارتد ابن خلدون مع ابن أبى عمرو الى بجاية، وأقام هنالك عنده حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م).

ولبث ابن خلدون يسعى فى الالتحاق ببطانة السلطان أبى عنان حتى ظفر ببغيته. ويقول لنا ابن خلدون ان السلطان هو الذى استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه فى مجلس عقد لاختيار

طلبة العلم ؛ فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضوا فى مجلسه العلمى وكلفه بشهود الصلوات معه . وما زال يدنيه ويقربه حتى عينه فى العام التالى ضمن كتابه وموقعيه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التى شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاما وخطورة . وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الأطماع الكبيرة . على أنه استطاع أثناء مقامه بفاس ، أن يستأنف الدرس والقراءة ، على جماعة من أكابر العلماء الوافدين اليها من الأندلس وباقى أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيرا فى تلك الحقبة ، ونمت معارفه نموا كبيرا .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ؛ تأخذ بقسط بارز فى تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحيانا فى تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحيانا تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان ابن خلدون لا يزال عندئذ فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكن ذكاءه وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطماعه ، واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائما إلى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرزق . وكانت أحوال الدول والقصور المغربية فى ذلك العصر ، كما بينا ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبى عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتتح أفقه ، وبدأ ذلك النشاط السياسى الزاخر

الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين دولة ودولة، وبين قصر وقصر، وبين الرفعة والسقوط، والنعم والمحن، مرارا .

لم يمض على انتظام ابن خلدون فى بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة إلى خوض غمار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبى عنان لم يدخر باعترافه وسعا فى اكرامه والعطف عليه، ومع أنه ولاه رغم حداثته منصب الكتابة واختصه بمجالسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فإنه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبى عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ أسيرا فى فاس . ويروى لنا ابن خلدون قصة هذه المؤامرة فى عبارة غامضة[1] ، ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم، وأنه خرج فى ذلك التفاهم عن حدود التحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حُمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بنى حفص الذين ينتمى إليهم الأمير المخلوع من الود القديم . وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضا فنمى إليه خبر المؤامرة ، وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه، على أن يوليه حجابته متى تم له الأمر[2] . فأمر بالقبض عليه وألقاه فى غيابة السجن، ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد ، فأنه أبقى المؤرخ يرسف فى أغلاله . ونزلت بابن خلدون تلك المحنة التى ينسبها إلى سعاية خصومه فى أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون فى ظلام السجن زهاء عامين طويلين ،

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٠٣

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤١٧

وتضرع الى السلطان أبى عنان مرارا أن يطلقه، ولكن السلطان أعرض عن كل تضرع وشفاعة؛ وأخيرا رفع اليه قصيدة طويلة فى نحو مائتى بيت يلتمس عطفه وصفحه ؛ وقد ذكر لنا منها الأبيات الآتية :

على أى حال لليالى أعاتب — وأى صروف للزمان أغالب
كفى حزنا أنى على القرب نازح — وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل — تسالمنى طورا وطورا تحارب

* * *

سلوتهم الا ادّكار معاهد — لها فى الليالى الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يسوقنى — اليهم وتصبينى البروق اللواعب

ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان أحسن موقع . وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه . ولكن المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق الوعد فى ذى الحجة سنة ٧٥٩ (أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين، ورده الى سابق وظائفه، وأغدق عليه عطفه، وأحسن رعايته ومثواه .

— ٣ —

ولما توفى السلطان أبو عنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على العرش، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين . وكان أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه المولى أبى سالم ونفاه الى الأندلس مع باقى اخوته ؛ فلما توفى أبو عِنان

بادر أبو سالم بالسعى الى استرداد العرش وعبر الى المغرب بعد صعاب جمة ، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت اليه قبائل غمارة وظاهرته على أمره ؛ وحدث فى الوقت نفسه انقلاب جديد بفاس . ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب يعقوب بن عبد الحق بالوزير الحسن فانتزع السلطة من يده ، وتوارى الوزير وسلطانه السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألفى ابن خلدون فى تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ؛ وقام خلالها بدور لا يحمد . وقد كان تصرفه فى حق السلطان أبى عنان بادرة سيئة تنم عن عواطف وأهواء ذميمة ؛ بيد أنه لم يكن وليد خطأ مؤقت ، بل كان بالعكس عنوان نزعة متأثلة فى النفس ، وثمرة مبدأ راسخ . كان ابن خلدون رجل الفرص ، ينتهزها بأى الوسائل والصور ؛ وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة ، ولا يضيره فى ذلك أن يجزى الخير بالشر والإحسان بالإساءة ؛ وهو صريح فى تصوير هذه النزعة لا يحاول اخفاءها . فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر ، وأحسن اليه وأثابه ؛ ولكنه ما كاد يرى وثوب المتغلب منصور بن سليمان حتى ترك جانب الوزير الى جانب خصمه ، وتولى الكتابة للملك الجديد ؛ بيد أن ولاءه لم يطل ؛ فإن السلطان أبى سالم نزل فى غمارة وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق بابن خلدون سرا ، وسلمه من أبى سالم كتابا يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ويعده بأجمل خير وحظوة ، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى فى تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبى سالم ، وأجمعوا أمرهم على تأييده ؛ وكذا وافق الوزير ابن عمر على طاعته بعد أن

أجهده الحصار . ثم غادر ابن خلدون سيده بجأة مع نفر من الزعماء الى معسكر السلطان أبى سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور "لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر الى السلطان"[1] . وسار أبو سالم فى جموعه ، وابن خلدون فى ركابه ، الى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ؛ وجلس أبو سالم على عرش أبيه (فى شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وينوه ابن خلدون بأنه نهج يومئذ فى كتابة الرسائل نهجا جديدا ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه الى السهل المرسل ؛ ويقول لنا أيضا إن شاعريته تفتحت فى هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر الذى "يتوسط بين الإجادة والقصور" وأنشد السلطان كثيرا من القصائد فى مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمه فى ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها الى السلطان ليلة المولد النبوى (سنة ثلاث وستين) يعدد فيها مناقب النبي الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى ... وأطلن موقف غربتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة ... لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الظاعنين وغادروا ... قلبى رهين صبابة ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح ... فشرقت بعدهم بماء غروبى

ومنها :

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٠٥

سائل به طامى العباب وقد سرى ... تزجى بريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم ... يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه ... وسطا الهدى بفريقها المغلوب

ورفع الى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان (سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره، ويصف الزرافة بما يأتى :

ورقيمة الأعطاف حالية ... موشية بوشائع البرد
وحشية الأنساب ما أنست ... فى موحش البيداء بالغرد
تسمو بجيد بالغ صعدا ... شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به ... ولربما قصرت عن الوهد

وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون، فيما يظهر، عهد البيان والشاعرية، فاشتهر أمر نثره ونظمه فى دوائر الأدب والشعر بالمغرب والأندلس يومئذ . ويصف لنا ابن الخطيب نثره ورسائله السلطانية بأنها "خلج بلاغة، ورياض فنون، ومعادن إبداع يفرغ عنه يراعه الجرئ، شبيهة البداءات بالخواتم فى نداوة الحروف وقرب العهد بجرية المداد، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع" ويقول عن نظمه إنه "نهض لهذا العهد قدما فى ميدان الشعر ونقده باعتبار أساليبه، فانثال عليه جوه، وهان عليه صعبه، فأتى منه بكل غريبة" (١) .

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

(١) ابن الخطيب، فى ترجمته لابن خلدون فى "الإحاطة فى أخبار غرناطة" ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

وأنه ينحو فى كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين فى صوغ الغزل الروحى . وقد كان ابن خلدون على ما يظهر يجيش بنزعة صوفية ؛ ويبدو مما كتبه فى المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى(١) انه قد درس التصوف وخواصه دراسة لابأس بها . ونحن نورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه فى "التعريف" أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئا منها ؛ غير أنه دون بعض رسائله الخاصة التى تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بيانه ومقدرته فى معالجة النثر المرسل(٢) . على أنه يبدى مثل هذه المقدرة فى البيان والتعبير بالأخص فى مقدمته ، وجميع تاريخه حسبما نبين بعد .

ولبث ابن خلدون فى كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبى سالم زهاء عامين، ثم ولاه "خطة المظالم" (القضاء) فأدّاها بقوة وكفاية . بيد أن حظوته لدى السلطان ضعفت واضمحل نفوذه ؛ وكانت المنافسات دائمة الاضطرام بينه وبين رجال الدولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان وزميله فى المنفى متمكنا من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقابض على كل سلطة، يتصرف بالأمر والنهى طبق هواه ؛ فكان هذا الطغيان يسخط رجال الدولة وأولى الرأى ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان

---

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) تراجع هذه الرسائل فى كتاب العبر، ج ٧ ص ٤٢٧ و ٤٣٤

ابن خلدون ممن عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوتهم ونفوذهم ، وكثرت منه الوقيعة والسعاية فى حقه غيرة منه ، وخشية من نفوذه ؛ وتمادى ابن مرزوق فى طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه وعلى السلطان من كل ناحية ، وأجمع الزعماء والكبراء رأيهم على الخروج والثورة . وكان زعيمهم فى ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان . وكان أبوه الوزير عبد الله بن على من قبله متمكنا فى دولة بنى مَرِين بجاهه وواسع ثروته . فلما توفى سنة ستين عند ولاية السلطان أبى سالم تطلع الولد إلى تراث أبيه ، واستعان بابن مرزوق على تحقيق بغيته ، وزوّجه السلطان بأخته ، وعينه كبير أمنائه وجعله موضع ثقته حينا . ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة كان يُحفظه ويذكى سخطه ؛ وكان السلطان من جهة أخرى يشك فى صلته بأمير تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة ؛ فلما تجاوز ابن مرزوق فى طغيانه كل حدّ ، واختمرت فكرة الثورة ، تفاهم عمر بن عبد الله مع قائد الجند ، ووثب بالقصر الملكى فى غيبة السلطان واستولى على البلد الجديد (العاصمة الجديدة) ونادى بخلع أبى سالم وتولية أخيه تاشفين سلطانا مكانه ؛ واضطرمت عندئذ نار الثورة فى كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية ؛ وحاول أبو سالم أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه ، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه من حوله إلى الظافر ، فرّ فى جماعة من صحبه ، فطارده الوزير عمر وقبض عليه وأمر بقتله ؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة ؛ وكان ذلك الإنقلاب فى أواخر سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١ م)[١] .

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣١٢ — ٣١٤

ماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الإنقلاب الجديد ؟
كان كما عهدناه دائما إلى جانب الظافر ينضوى تحت لوائه دون إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره فى وظائفه وزاد فى إقطاعه ورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة . فقد كان على قوله «يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه» . وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبى عنان صداقة قديمة ، وكان يعتمد على هذه الصداقة فى التمكن لدى الوزير و يرى لها حقها عليه ، و يرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه فى الظفر بمناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن الوزير عمر لم يحقق له أملا فى ذلك . ولعله كان يخشى بحق مما تجيش به نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون واستقال من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتنكر له ؛ فتوجس ابن خلدون شرا ، واستأذن فى السفر إلى بلده تونس فمنعه الوزير من ذلك خشية أن يمر فى طريقه بعدوه أبى حمو أمير تلمسان التى استرجعها بنو عبد الواد يومئذ ؛ فاستغاث ابن خلدون بمسعود بن ماسى زميل الوزير عمر وصهره فأغاثه وما زال بعمر ، حتى أذن له فى السفر بشرط أن يجانب تلمسان وألا يذهب إليها بأى حال ومن أى طريق . فاختار ابن خلدون الرحلة إلى الأندلس . وهنا يحدّثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ، فيقول لنا إنه صرفهم إلى أخوالهم فى قسنطينة . وإذًا فقد كان ابن خلدون يومئذ متزوجا وكان له أولاد . ولم يقل لنا من قبل إنه تزوّج ، ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أنا نعتقد أن

هذا الزواج كان فى سنة ٧٥٤ هـ ، أعنى قبل ذلك بعشرة أعوام، فى الوقت الذى كان يتجوّل فيه فى المغرب الأوسط على أثر مغادرته لتونس سنة ٧٥٣هـ؛ وكان عندئذ يقيم ببجاية على مقربة من قسنطينة، وفق ما أسلفنا . وسنرى أن ابن خلدون يتتبع منذ الآن أسرته بالذكر، فيشير الى تنقلاتها معه فى مختلف المواطن؛ بيد أنه لا يقدّم إلينا عنها أو عن ولده أو حياته المنزلية أى تفصيل آخر .



الفصل الثالث

رحلة الأندلس

محمد بن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمر ووفوده مع وزيره الى بلاط فاس . قصيدة ابن الخطيب فى استنهاض ملك المغرب لنصرة ملكه . ابن الخطيب وابن خلدون . استرداد محمد ابن الأحمر لعرشه ورده ابن الخطيب الى وظائفه . سفر ابن خلدون الى غرناطة . توثق الصلة بينه وبين بن الأحمر . إرساله سفيرا لملك قشتالة . رواية ابن خلدون عن زيارته لإشبيلية موطن أجداده . فتور العلائق بينه وبين ابن الخطيب . مغادرته للاندلس .

وكان ملك غرناطة (الأندلس) فى ذلك الحين محمد بن يوسف ابن اسماعيل بن الأحمر النصرى . ولى الملك عقب مقتل أبيه السلطان يوسف أبى الحجاج سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤ م) . وكان حَدَثا ضعيفا فاستبد حاجبه أبو النعيم رضوان بشئون الدولة ؛ وكان من وزرائه لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وكان وزيرا لأبيه من قبل . وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبى سالم وباقى أخوته ونفاهم إلى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان محمد مثواهم ، وأحكمت بينه وبين السلطان أبى سالم صداقة متينة . فلما توفى السلطان أبو عنان ، واسترد أبو سالم عرشه فى شعبان سنة ستين ، كانت الصلة بين الأميرين أوثق ما يكون . بيد أنه لم تمض أسابيع قلائل على جلوس أبى سالم ، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد

عرشه فى أواخر رمضان سنة ستين . وكان أخوه اسماعيل يؤازره جماعة من الزعماء فى مقدّمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لإسماعيل سرا ، ويترقب الفرص للوثوب بمحمد . فانتهز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة، واستولى على حصن الحمراء فى جمع من أتباعه، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى باسماعيل أخى السلطان ملكا مكانه . ففر محمد إلى وادى آش ، واعتُقل وزيره ابن الخطيب [1] ،وعلم أبو سالم بمحنة صديقه، ورعى له عهد الصداقة والوفاء فأرسل الى الأندلس سفيرا يسعى لدى حكومة غرناطة فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل الى المغرب. فنجح السفير فى مهمته، وعاد الى المغرب صحبة السلطان محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة

---

(١) لسان الدين بن الخطيب ، هو محمد بن عبد الله بن سعيد من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ودرس دراسة حسنة ، وبرز فى النظم والإنشاء . ودرس الطب والفلسفة ؛ وخدم سلاطين غرناطة منذ حداثته فتولى ديوان الكتابة ثم الوزارة للسلطان أبى الحجاج ثم تولى الوزارة لولده محمد ، وشاطره محنته ونفيه ؛ فلما استرد عرشه عاد الى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حينا ؛ فلما أخذ نجمه فى الأفول ، ونفوذه فى الضعف ، نزح الى المغرب الأقصى واستظل بلواء سلطانها ؛ ولكن خصومه سعوا الى هلاكه ، وما زالوا به حتى اتهم بالزندقة والكفر فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م) وله ثبت حافل من الآثار أشهرها : الإحاطة فى أخبار غرناطة. تاريخ الدولة النصرية . ريحانة الكتاب . السحر والشعر. الكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لاتحصى. وقد أفرد له المقرى صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

إحدى وستين)[1] واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوّى الذى ربى جناحى وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

* * *

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر نرهب موجه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

* * *

ومنها :

وأنت الذى تدعى اذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى اذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره ... ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر[2]

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل . و يقول لنا إن ابن

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث — تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ص ١٠٨ وما بعدها ، وابن خلدون فى كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

(٢) والقصيدة طويلة فى نحو ثمانين بيتا وقد ورد نصها كاملا فى الكتابين السالفين .

الخطيب أبكى سامعيه تأثرا وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهات عديدة؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ؛ وكان كلاهما شخصية بارزة فى حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلبا بين الظفر والمحنة ؛ وكان كلاهما وزير ومستبد ومستشار لأمراء عصره ، ومحرض لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كان يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ؛ وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس؛ وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله . وقد ترجم كل منهما الآخر؛ وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ؛ فيقول لنا ابن خلدون فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لايجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة رسائله السلطانية ، وبُعْد همته فى الإدارة والحكم[١] ، ويصف ابن الخطيب ، ابن خلدون فى ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر، ظاهر الحياء ، أصيل

---

(١) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس والمغرب — فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ ومابعدها — وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الخطيب ج ٧ ص ٣٤١ .

المجـد ، وقور المجلس ، عالى الهمـة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسـة ، خاطب للحظ ، متقدم فى عدّة فنون عقلية ونقلية ، متعدّد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ... » . [١] ويبدى كلا الرجلين فيما تبادلا من رسائل ، لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال .

وأقام السلطان محمـد فى بلاط فاس حينا ولم يدخر أبو سالم وسعا فى اكرامه . وتجول ابن الخطيب حينا بالمغرب ، واستقر بِسَلا . وتوثقت بين ابن خلدون وهو يومئـذ من أكابر رجال الدولة وبين الأمير المخلوع روابط المحبة والصـداقة ؛ وكان يقوم بخـدمته وقضاء مطالبه ؛ فلما سافر الأمير الى الأندلس ليحاول اسـترجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته ، ورعاية شئونها ومطالبها ، وتوفير راحتها . وعقدت أيضا بينه وبين ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وحاول السلطان محمـد أن يعمل لاسـترداد ملكه بمعاونة پيدرو القاسى (بتره أو بطره) ملك قشتالة ، تنفيذا لاتفاق عقـد بينهما ؛ ولكن ملك قشتالة حينما سمع بمصرع السلطان أبى سالم ، أبدى فتورا فى التنفيذ ، فاستغاث محمد عندئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب ، ووسّط لديه ابن خلدون ، وكانت له يومئـذ لديه حظوة ، فى أن يقطعه إحدى مدن الأندلس المغربية ، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب . فأقطعه رندة وأعمالها . وما زال يدبر أمره ، حتى اسـتعاد ملكه

---

(١) وردت هذه الترجمـة فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » . ونقلها المقرى فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

من أيدى خصومه ، ودخل غرناطة ظافرا فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ؛ واستقدم اليه أسرته من فاس واستدعى وزيره ابن الخطيب وردّه الى سابق مراتبه ونفوذه .

ثم وقع الجفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة إلى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أياد لاتنسى ، فإنا نستطيع أن نتصور العوامل التى دفعته إلى تلك الرحلة ، والآمال التى كان يعلقها عليها . فقصد إلى سبتة فى أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم جاز منها إلى الأندلس ، وكتب إلى السلطان وابن الخطيب بمقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم . ووصل إلى غرناطة فى الثامن من ربيع الأول ، فاهتم السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه فى أهل مجلسه ، وقربه اليه ، وآثره بصحبته وأسماره . وعامله ابن الخطيب بمنتهى الإكرام والرعاية . وفى العام التالى ، أعنى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان سفيرا عنه الى پيدرو القاسى (بترة أو بطرة) ملك قشتالة[1] ، ومعه هدية فخمة ، لإتمام عقد الصلح وتنظيم العلائق بينهما . فقصد ابن خلدون اليه فى إشبيلية حيث كان يقيم يومئذ ، وتلقاه ملك قشتالة بالترحيب والإكرام . وهنا يقول لنا ابن خلدون ، إنه

---

(١) هو پيدرو أو بطرس القاسى ملك قشتالة ولد سنة ١٣٣٤ وتوفى سنة ١٣٦٩ ، وتولى العرش بعد وفاة أبيه الفونسو الحادى عشر سنة ١٣٥٠ ، وقد اشتهر بصرامته وطغيانه وبطشه .

عاين آثار أسرته باشبيلية وقد كانت كما رأينا منزل بنى خلدون وفيها سطع نجمهم حينا ؛ وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ؛ وعرّفه به و بمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرزر ، وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل حين استدعاه لمعالجته ؛ ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ ان يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته ليردّ اليه تراث أسرته بإشبيليه ولكنه أبى . ولا ريب أن ابن خلدون كان أذكى من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جادّا فى عرضه . وأدّى ابن خلدون مهمته بنجاح ، ووهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان ؛ وأقطعه السلطان عند عوده قرية البيرة بمرج غرناطة ، فزاد رزقه واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان فى استقدام أسرته من قسنطينة ، فبعث السلطان فى استقدامها . وعاش مدى أشهر أخر مع أسرته فى رغد وطمأنينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته فى ذلك من فتوره وإعراضه ؛ وكان الوزير يخشى بلا ريب منافسته ومشاريعه . وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته فى الوقت نفسه رسالة من صديقه الأمير أبى عبد الله محمد أمير بجاية بأنه استرد ملكه ، وأنه يرغب فى قدومه ، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ واستأذن السلطان فاذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعه معززا مكرما ؛ فغادر الأندلس ، وركب البحر من ألمرية إلى بجاية فى منتصف سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) .

الفصل الرابع

ذروة المغامرة

أبو عبد الله محمد أمير بجاية . استعادته لملكه واستدعاؤه لابن خلدون . تولى ابن خلدون الحجابة المطلقة فى بجاية . استيلاء أبو العباس أمير قسنطينة على بجاية ومصرع الأمير محمد . انضواء ابن خلدون تحت لواء الظافر . الوحشة بينه وبين أبى العباس وفراره الى بسكرة . المغزى الأخلاقى لهذه الحوادث . استدعاء أبو حمو سلطان تلمسان لابن خلدون . اعتذاره وقيامه بالدعوة له . السلطان عبد العزيز المرينى يفتتح تلمسان . اتصال ابن خلدون به وقيامه بدعوته . قدوم ابن الخطيب الى المغرب . سفر ابن خلدون الى فاس . تطوّر الحوادث فى المغرب وقيام السلطان أبو العباس احمد . الدسائس حول ابن خلدون . سفره الى الأندلس . المطالبة بتسليمه . مصرع ابن الخطيب

لم ينس أمير بجاية إبان ظفره صديقه أيام محنته ، ولم ينس أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن . فكتب اليه يستدعيه ليشاركه فى أمره وليحقق له الوعد الذى قطع على نفسه . وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية (تونس) خاضعة للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ كما قدمنا ، أقطع الثغور لأولاده فتولى بجاية ابنه الامير أبو زكريا ولبث فى حكمها حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ . وخلفه فى حكمها ولده الأكبر الأمير أبو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان أبو الحسن على إفريقية خلع الأمير محمدا فيمن خلع من أمراء الثغور ونفى إلى المغرب . ولما ثار السلطان أبى عنان على أبيه أثناء غيبته

فى إفريقية ردّ الأمراء المخلوعين وفيهم الأمير محمد إلى ثغورهم لكى يعترضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حينا آخر فى حكم بجاية . ثم توفى السلطان أبو الحسن ، وتم الأمر لأبى عنان . فانتزع بجايه من صاحبها كرة أخرى وأرغمه على النزول عنها اليه ونفاه إلى المغرب ، فأقام هنالك حتى قدم ابن خلدون على السلطان أبى عنان ودخل فى خدمته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لما كان بين أسرتيهما من سابق المودة ؛ واتهم ابن خلدون بالتآمر مع صديقه ، وبأنه يدبر له سبل الفرار لكى يسترد إمارته ثم يوليه حجابته ، واعتقل مدى عامين حتى وفاة السلطان أبى عنان . فلما تولى السلطان أبو سالم سعى ابن خلدون لإطلاق الأمير محمد وباقى الأمراء المنفيين إلى ثغورهم ، وكتب له الأمير محمد بخطه عهدا بأن يوليه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمير إلى بجاية وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه فى سنة ٧٦٥ ، واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الأصغر ، وبعث إلى ابن خلدون وهو بالأندلس يستدعيه ليوليه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب اليه وكان قد اعتزم الرحيل من الأندلس كما قدمنا . ووصل الى بجاية فى منتصف سنة ست وستين . فاستقبله أمير بجاية وأهلها أجمل استقبال . ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه فى تلك العبارة الرنانة : « فاحتفل السلطان بقدومى ، وأركب للقائى ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى ، ويقبلون يدى وكان يوما مشهودا »

وتولى ابن خلدون فى الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية ،

وقد كانت الحجابة يومئذ فى الدول المغربيـة حسب تعريفه هى: «الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه فى ذلك أحد» . واستبد بشئون الدولة، ومضى يدبر الأمور بعزم و يعالج الفتن القائمـة بحزم وذكاء، و يتجول بين القبائل الجبليـة يستخلص منها الجباية قسرا بقوة دهائه ونفوذه . ولكن الخصومة ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية و بين ابن عمه السلطان أبى العباس صاحب قسـنطينة . وكان أبو العباس يتطلع الى امتـلاك بجاية ويثير على أميرها القبائل والبطون المجاورة . و يقول لنا ابن خلدون أيضا إن الأمير محمدا لم يحسن السيرة فى أهل بجاية بل كان يرهقهم و يشدد الوطأة عليهم حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته إجابة لتحـريض أبى العباس . وفى سـنة سبع وستين قصد أبو العباس فى جمـوعه الى بجاية ، وقاتل الأمير محمـدا بظاهرها وهزمه وقتله ، ودخل بجاية ظافرا . وكان ابن خلدون أثناء ذلك يلزم القصر فى بجاية ، فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء فى تولى الأمر والدعوة لأحد أبناء السـلطان ، فأبى وخرج كعادته الى تحية الظافر والانضواء تحت لوائه ، وسلم ابن خلدون المدينـة الى أبى العباس ، فأكرمه وأقره حينا فى وظيفته ، ولكن ابن خلدون شعر عما قليل بانحرافه فانصرف بإذنه الى أحد الأحياء القريبة . ثم رأى أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى ، واعتقله ببونه ، وفتش بيوتهم وصادر أموالهم .

وهكذا اختتمت تلك المغامرة التى كان ابن خلدون مدبرها

منذ البداية ، وكانت من نفثات أطماعه؛ وكانت كسابقاتها دليلا على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران الصنيعة، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافى الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية؛ وكان يسيّره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافيللى فيما بعد، وتصوره فى أميره الأمثل؛ ذلك الروح الجرئ الثابت الذى يقتحم كل ضعف انسانى، ويحمل توّا الى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعانى هذا الأمير أبو عبدالله بادرت الى امتثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»[1] . ولكن الذى لاريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهيأها منذ بعيد؛ ولا ريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن خلدون عندئذ الى بِسْكِرَة لصداقة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمو موسى ابن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً لأمير بجاية المقتول . وكان يطمح الى فتح بجاية . فلما بلغة مقتل صهره بعث قواته الى

(١) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٧٧ .

بجاية تحاول أخذها ، ولكنها هزمت هزيمة شنيعة ؛ وكتب أبو حمو على أثر ذلك الى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليوليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه فى بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل اليه بالفعل مرسوم الحجابة ؛ وكتب اليه يرجوه فى السعى لبث دعوته واستمالة القبائل اليه . فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أُطلق سراحه الى سلطان تلمسان نائبا عنه ؛ ولكنه استجاب الى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبى العباس الى جانب خصمه أبى حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة وأهوال الوظيفة ، وزهدت فى غواية الرتب ، واشتاقت الى الدرس بعد أن هجرته طويلا ؛ فعول على استئناف الدرس والقراءة ، والإعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية . ولكن سنرى أنه يعود الى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مرارا أخرى .

وفى ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه ، ويحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه ، ويحدثه بأخباره ومحنته فى بجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت اليه[1] . ويبدو فى هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والاجلال .

ولبث ابن خلدون فى بسكرة يبث الدعوة لأبى حمو ويحشد

---

(١) راجع هذه الرسائل فى كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ .

القبائل فى جانبه ، ويؤلبها على أبى العباس ؛ ويعمل من جهة أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبى حمو وأبى إسحاق سلطان تونس . وكان بينه وبين أخيه أبى العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبى حمو بخروج ابن عمه أبى زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته فى استمالة القبائل اليه ؛ ثم خرج مع صاحب بسكرة وباقى الزعماء الذين استمالهم فى قواتهم لنصرة أبى حمو ، وكان يتهيأ لمحاربة خصومه (سنة ٧٧١ هـ) ولكن أباحمو هزم امام خصومه مرة أخرى وارتد ابن خلدون الى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل الى جانب أبى حمو ، وأحكام الصلة بينه وبين سلطان تونس .

وفى العام التالى ، سار ابن خلدون فى وفد من الرؤساء لزيارة أبى حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة . فلقيه بالجزائر ، وبقى لديه مدى حين ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فيها :

هذى الديار فحيهن صباحا ... وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الأطلال ان لم تروها ... عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقا ... أن لا يرين مع البعاد شحاحا

ولكن ولاء ابن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحوّل عنه الى عدوّه ، يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج فى جيوشه يومئذ يزمع غزو تلمسان وانتزاعها كرة أخرى من قبضة بنى عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبى سالم سنة ٧٦٢ هـ

كما قدمنا ، وأخذ يولى العرش ملوكا وأحداثا ضعافا من بنى مرين . ففى سنة ٧٦٨هـ ولّى السلطان عبدالعزيز بن السلطان أبى الحسن ، وكان أسيرا فى اعتقاله ، وشدد عليه الحجر والاستبداد كعادته ؛ فأنف السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه ، واسترد السلطة كاملة ؛ ثم خرج بجيوشه للغزو فى تخوم المغرب الأوسط يقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط ؛ وكان ابن خلدون يقيم عندئذ فى ضيافة أبى حمو . فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق الى بسكرة قد سدت فى وجهه ، وسرت الفتنة الى كل ناحية ، خشى العاقبة على نفسه ، واستأذن أبى حمو فى السفر الى الأندلس ، فأذن له وبعث معه برسالة الى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون الى مرسى هنين ليركب البحر منها ؛ ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ بجيوشه على تلمسان فغادرها أبو حمو الى الصحراء ليحشد جموعه وأنصاره . ونمى الى ملك المغرب أن ابن خلدون فى هنين وأنه يحمل ودائع لأبى حمو ، فأرسل فى طلبه سرية من الجند ، فدهمته فى المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئا ، وحملته الى السلطان فى ظاهر تلمسان ، فحقق فى شأنه وعنفه على انسلاخه عن بنى مرين وانضوائه تحت لواء أعدائهم ؛ فاعتذر ابن خلدون بما كان بينه وبين الوزير عمر ، وشفع له أكابر الدولة الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته لبنى مرين ؛ ووعد السلطان بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه برغبته فى فتحها ، فارتاح السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من اعتقاله ، فارتد الى مكان فى الصحراء يعرف برباط أبى مدين

ونزل به حينا يشتغل فى عزلته بالقراءة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعدئذ بقليل (سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد اليه بأن يبث دعوته بين القبائل وأن يحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبى حمو، فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واستمالتها لمحاربة صديقه بالأمس، وانتظم فى سلك الحملة التى بعثها السلطان لمطاردة أبى حمو وأخذ يعمل تباعا على سلخ القبائل عن أبى حمو بما كان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ؛ ولبثت جنود السلطان تقتفى أثر أبى حمو حتى دهمته فى أعماق الصحراء ومزقت معسكره، وفر أبو حمو وآله تحت جنح الظلام، وتخلف ابن خلدون بعدئذ لدى أسرته أياما فى بسكرة ، ثم قصد الى السلطان عبد العزيز فى تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه ؛ وأرسله ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة فى المغرب الأوسط وردها الى الطاعة؛ فصدع بالأمر، ولكنه لم ينجح فى مهمته فى تلك المرة، فعاد الى بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان . وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه ابن الخطيب على السلطان فى تلمسان، وقد غادر الأندلس فرارا من بطش سلطان غرناطة بعد مافسدت بينهما العلائق؛ فاستقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه .

وكتب ابن الخطيب الى صديقه فى بسكرة يقص عليه خبره ، ويعتب عليه فيما كان منه فى حقه حين مقامه بالأندلس؛ فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه، ويدفع

عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ويهنئه بنجاته[1] .

ولبث ابن خلدون مقيما فى بسكرة ، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة فى جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبى بكر بن غازى ، عهد الى ابن خلدون باستمالة القبائل كرة أخرى ، فأدى ابن خلدون المهمة ، وقصد الى الوزير بمكانه بالصحراء فى شيوخ القبائل الموالية ، ونظم معه برنامج العمل ، ثم عاد الى بسكرة ، ولكن مقامه بها لم يدم طويلا لأنه آنس فى نفس أميرها تغيرا ونزوعا الى الثورة ، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان فى تلمسان ، ولكنه ما كان يصل الى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء بوفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه فى كفالة الوزير ابن غازى وقفول البلاط كله الى فاس ، (سنة ٧٧٤ هـ) ، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة والجند . واعترضت القافلة أثناء مسيرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبى حمو الذى عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان ، ونهبت متاع المسافرين ، ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة ، ووصل أخيرا الى فاس فى حال سيئة ، فأكرمه الوزير ابن غازى وغمره برعايته ، وأقام فى فاس موقرا مبجلا .

وفى ذلك الحين ساءت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد التجأ كما قدمنا الى بنى مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الى بلاط فاس

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٣٤ — ٤٣٦

إبعاده وتشريده فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بنى الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس وهما عبد الرحمن بن يفلوس من أمراء بنى مرين والوزير مسعود بن ماسى لمناوأة حكومة فاس ، وبعثهما فى أسطوله الى شواطئ المغرب وحاصر جبل طارق وهى يومئذ من أملاك بنى مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشا لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . فاستماله ابن الأحمر وحرضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يومئذ معتقلا بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة بقرب مكناسة ، وارتد ابن غازى الى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابته . واستولى الأمير عبد الرحمن على شمال المغرب تنفيذا للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقيما بفاس ؛ فلما وقع الإنقلاب ، وشى بعضهم فى حقه للحكومة الجديدة ، فقُبض عليه حينا ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمير عبد الرحمن سلطان الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة الى الأندلس بعد أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون انه أراد اللحاق بالأندلس طلبا للاستقرار والدرس . والظاهر أن فكرة الإنقطاع الى البحث والتأليف كانت قد اختمرت فى ذهنه يومئذ ، وقد رأيناها تساوره مرارا منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب ، فجاز

البحر الى الأندلس فى ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركا أسرته بفاس . ولقى فى طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبدالله بن زمرك ذاهبا الى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حسابا لدسائس خصومه ، ولم يدر بخلده أنه سيغدو موضعا للمساومة فى مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شرا من استقراره بالأندلس وأبى أن تلحق به أسرته لما نمى اليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبدالرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى الى فاس ليسعى فى تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الجديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقده ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب الى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإنقاذ ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يجيز ابن خلدون الى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون سعى لإنقاذ صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ الى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازى ؛ فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يرسف فى سجنه حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وذهب المفكر والكاتب والسياسى العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، اذ اتُهم بالزندقة فيما ورد ببعض رسائله ، فعذّب وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله

فقتل خنقا فى سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤م)[1] .
وقد نقل الينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده ابن الخطيب فى سجنه يرثى به نفسه :

بعدنا و إن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... بجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... عزين فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

الفصل الخامس

العزلة والتأليف

عود ابن خلدون الى المغرب وعود الصلة بينه وبين أبى حمو. التجاؤه الى أحياء عريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخى . كتابة المقدمة وتاريخ العرب والبربر . سعيه الى العودة الى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عوده الى وطنه . اتمامه لمؤلفه ورفعه إياه الى السلطان . قصيدته يوم الإهداء . الدسائس من حوله . خروجه مع السلطان فى الحملات الحربية . اعتزامه الرحلة الى المشرق وركوبه البحر . زهده فى الحياة السياسية

وهكذا كاد القدر يجمع بين الصديقين لآخر مرة فى ظروف مماثلة ، وكاد ينكبهما بمحنة مشتركة . ولكن ابن خلدون كان أسعد حظا من صديقه إذ اكتفى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده الى إفريقية . فنزل فى مرسى هنين حائرا جزعا لا يعلم أنى يقصد . وكان أخوه يحيى قد عاد الى خدمة أبى حمو أمير تلمسان ، ولكن أبا حمو كان ناقما عليه أيما نقمة لما فعله فى حقه مرة بعد مرة ، فتركه شريدا فى هنين . ثم شفع فى أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بنى عريف ، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن فى قدومه الى تلمسان ، فقدمها فى عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة . ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعو له بين القبائل ؛ فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغما . ولكنه كان على ما يظهر

قد عاف غمار السياسة نهائيا ، فما كاد يغادر تلمسان حتى ولى شطر قبلة أخرى ، وسار الى أحياء بنى عريف فنزل لديهم ، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان ، واعتذر له أصدقاؤه لدى السلطان أبى حمو ، وأكرم بنو عريف مثواه أيما اكرام ، وانزلوه مع أسرته بأحد قصورهم فى قلعة سلامة من أعمال توجين[1] ؛ فقطع ابن خلدون فى ذلك المقر النائى المنعزل مدى أربعة أعوام ، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء المستمر ، بعيدا عن غمار السياسة والدسائس السلطانية ، ومخاطر التجوال والحملات الحربية ، وألفى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس .

وفى تلك الفترة الهادئة بدأ ابن خلدون بكتابة مؤلفه التاريخى . وكان يومئذ فى نحو الخامسة والاربعين من عمره ، وقد نضجت مباحثه ومطالعاته . وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة ، متقلبا فى خدمة القصور والدول المغربية ، يدرس شئونها ونظمها ويستقصى سيرها وأخبارها ، ويجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية متغلغلا بين القبائل البربرية يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها فى الحياة العامة والحياة الخاصة . وكان ذهنه الخصب ، فضلا عن هذه الدراسة العملية ، يفيض بثمار الإطلاع الشاسع ، الذى كان يجد فى تحصيله كلما سنحت الفرص فى مكاتب المغرب والأندلس . وكانت عزلة مباركة موفقة ؛ ففى ذلك المقام النائى المنعزل ، كتب ابن خلدون

(١) تقع هذه المنطقة جنوب اقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية .

مقدمة تاريخه، وألهم تلك المباحث والنظريات الخالدة التى تتبوأ مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير البشرى، ووهب تراث العربية ذلك الأثر الخالد الذى مازالت تزهو به وتفاخر؛ وانتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته العجيبة لأول مرة فى منتصف سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) واستغرق فى كتابتها خمسة أشهر فقط[١] ثم نقحها وهذبها بعد ذلك . وهو يقول لنا فى دهشة من نفسه و إعجاب بتوفيقه « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت اليه فى تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها، وتألفت نتائجها»[٢] . ثم شرع بعد إتمام المقدمة فى كتابة تاريخه، فكتب منه تاريخ العرب والبربر وزناتة أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى والأخيرة حسب النظام الذى انتهى به الينا . ولم يكن فى برنامج ابن خلدون أن يكتب تاريخا عاما للخليقة، بل كان قصده الأساسى أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية، وهو مايشير اليه فى المقدمة بقوله : « وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى إما صريحا أو مندرجا فى أخباره وتلويحا، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه، وأن الأخبار المتناقلة لا توفى كنه ما أريده منه»[٣]، ولكنه عاد فعدل برنامجه،

---

(١) راجع ختام المقدمة — ص ٥٣٤

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٤٤

(٣) المقدمة — ص ٢٧

ورأى أن يكتب تاريخا عاما للخليقة . ولما كان ينقصه فى مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعتزم العودة إلى وطنه تونس حيث تهيء له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق .وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والاقسام المتعلقه بتاريخ العرب والبربر

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذى عهدناه من قبل أميرا لقسنطينة ثم انتزع بجاية من يد ابن عمه الأمير محمد وولى ابن خلدون له الحجابة حينا ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة ؛ فاعتقل عندئذ أخاه يحيى فى بونه وصادر أموالهم . ولبث أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ؛ ولجأ اليه وزيرها ابن تافراكين الذى استبد حينا بشئونها حينما جرده السلطان أبو إسحاق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفى سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس فى قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها الطفل ولد أبى إسحاق ، ثم استولى من بعدها تباعا على جميع ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيدة الدعائم . وكانت العلائق سيئة بين السلطان أبى العباس وبين ابن خلدون منذحوادث بجاية أعنى منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما اعتزم المؤرخ العودة إلى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب إلى السلطان أبى العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف فى شهر رجب سنة ٧٨٠ واجتاز

الصحراء ومر فى طريقه بقسنطينة فاستراح بها حينا فى ضيافة الأمير إبراهيم ابن السلطان أبى العباس ، ثم قصد إلى السلطان أبى العباس ، وكان يومئذ على رأس جيشه يعمل على إخماد الثورة فى بعض النواحى ، فلقيه بظاهر سوسة ؛ فحياه السلطان أجمل تحية وبالغ فى إكرامه وقربه وشاوره فى أموره . ثم بعثه إلى تونس وأصدر أوامره بتوفير مايجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل ابن خلدون تونس ، وطنه ومسقط رأسه ، لأول مرة منذ فارقها حدثا دون العشرين فى سنة ثلاث وخمسين ؛ واستقدم أسرته من أحياء عريف ، وأقام فى دعة وأمن وسعة عاكفا على الدرس والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ؛ فقربه اليه واختصه بمجلسه وكلفه بإتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون كرة أخرى بالدسائس القديمة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من الرعاية . وكان محور هذه الدسائس خصمه الفقيه ابن عرفه شيخ الإفتاء . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه الخصومة ، إنه كان يتفوق على ابن عرفه فى المجالس العلمية ، وان تلامذة ابن عرفه هرعوا اليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسعى مع رجال البطانة فى حقه لدى السلطان . ولكن هذه السعاية لبثت حينا دون أثر لتمكن منزلته ومقامه .

ولما توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها إلى مولاه السلطان أبى العباس فى أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢ م) وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناتة

وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الاسلامية المختلفة[1]، وقد انتهى ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار الدول المغربية فى عصره حتى استرجاع السلطان أبى العباس لتوزر فى سنة ٧٨٣هـ[2]. ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ، وأضيفت اليها أقسام كبيرة أخرى فى تاريخ الدول الاسلامية فى المشرق، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد.

وفى نفس اليوم الذى رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبى العباس، أنشده قصيدة طويلة فى نحو مائة بيت، يشيد فيها بسيرته وأعماله، ويستدر عطفه ورعايته، وينوه بكتابه؛ وهى من أشهر قصائده، وهذا مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل ... أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بعثت إليك على النوى ... عزما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوأ الدنيا ومنتجع المنا ... والغيث حيث العارض المتهلل

ومنها :

ارح الركاب فقد ظفرت بواهب ... يعطى عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم فى الندى ... كالروض حياه ندى مخضوضل
هذا أمير المؤمنين أمامنا ... فى الدين والدنيا اليه الموئل
هذا أبو العباس خير خليفة ... شهدت له الشيم التى لا تجهل
سبق الملك الى العلا متمهلا ... لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا ... يتسابقون الى العلاء وأكمل

---

(١) راجع كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦
(٢) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٦

ومنها فى ذكر الكتاب :

اليك من سير الزمان وأهله ... عبرا يدين بفضلها من يعدل
صحفا تترجم عن أحاديث الأولى ... درجوا فتجمل عنهم وتفصل
تبدى التبابع والعمالق سرها ... وثمود قبلهم وعاد الأول
والقائمون بملة الإسلام من ... مصر وبربرهم إذا ما حصلوا
لخصت كتب الأولين بجمعها ... وأتيت أولها بما قد أغفلوا
وألنت حواشى الكلام كأنما ... سرد اللغات بها لنطق ذللوا
وجعلته لسوار ملكك مفخرا ... يبهى الندىّ به ويزهو المحفل
والله ما أسرفت فيما قلته ... شيئا ولا الإسراف منى يجمل

على أن هذه الدعة التى تفيأ ابن خلدون ظلالها مدى حين، ما لبثت أن غشيها الكدر . فما زال ابن عرفه وحلفاؤه خصوم المؤرخ فى دسّهم وسعايتهم ؛ ولم تثمر هذه السعاية فى حرمان المؤرخ من عطف مليكه ، ولكنها أثمرت فى إزعاجه من طريق آخر . ذلك أن السلطان حينما تأهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه فى توزر وأعمالها سنة ثلاث وثمانين، أمر ابن خلدون بالسفر معه، فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث السياسة، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد الى ضيعته بجوار تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافرا، فصحبه الى تونس . ولم تمض أشهر قلائل حتى تأهب السلطان للخروج فى جيشه مرة أخرى . فخشى ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه فى حملاته، وألّا يستقر له قرار بعد . فاعتزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج ، يتوسل بها عذرا الى السلطان . فتضرع اليه أن يخلى سبيله وأن يأذن له فى قضاء الفريضة ، فأذن ؛ وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية ؛ وخرج الى مرسى السفينة ، فى حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودّعونه بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) .



وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث ؛ ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة ؛ ولم تكن مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسى ومفكر عرفته إفريقية[١] والأندلس فى القرن الثامن ؛ وكانت تلك الخلال والمواهب البديعة التى حملته الى ذروة الحوادث ، وجعلت منه شخصية بارزة فى تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن ، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحرية التى عرفت دائما بقوة الشكيمة وجفاء النزعة ، خليقة بأن تهيئ له مكانة رفيعة وطيدة فى دول العصر وقصوره . وقد أنفق بن خلدون ربع قرن فى خوض غمار السياسة ودسائس القصور ، وتقلب فى خدمة جميع الدول المغربية ، وتمتع مرارا بمزايا الرياسة والحكم ، وذاق مرارا محن النقمة ومرارة الإعتقال والأسر وخطر الهلاك ؛ ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول التى تقلب

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره .

فى خدمتها وأسدى اليها أجلّ الخدمات أحيانا؛ ثم إذا به يجد نفسه فى هذا الملاذ الأخير الذى آوى اليه واستقر فى ظلاله، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى فى البحث والتأليف؛ وقد هدأت نفسه المضطرمة بشغف النضال والمغامرة، وعاف أحداث الساسية، وأخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التى كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة . وكان ينشد الإستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة فى وطنه، ويثوى اليه الثواء الأخير الى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة، وأزعجه كيد خصومه فى مقامه الهادئ؛ وخشى أخيرا عاقبة الكيد والسعاية، ولم يجد فى تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة؛ فاضطر أن يلتمس الحج عذرا للرحيل والنجاة، وأن يودع الأهل والولد، وأن يغادر الوطن وحيدا فريدا الى حيث لا يعلم ماذا هيأت له الأقدار .

٢

ابن خلدون فى مصر

٧٨٤ — ٨٠٨ هـ : ١٣٨٢ — ١٤٠٦ م

الفصل السادس

ولاية التدريس والقضاء

مقدم ابن خلدون الى مصر . وصفه للقاهرة . جلوسه بالأزهر . اتصاله بالبلاط . ولايته التدريس بالمدرسة القمحية . الدرس الأول . ولايته لقضاء المالكية . اضطراب الأفق حوله . حديثه عن القضاء . تعليق الكتاب المصريين على مسلكه . هلاك أسرته فى البحر . عزله عن القضاء وبقاؤه فى منصب التدريس . سفره للحج . ولايته للتدريس فى الصرغتمشية . الدرس الأول . تعيينه شيخا لخانقاه بيبرس . ثورة يلبغا الناصرى وعزل السلطان برقوق . سقوط يلبغا وعود برقوق الى العرش . تأملات ابن خلدون عن الدول المصرية . انقطاعه للدرس والبحث . سعيه الى عقد الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .

— ١ —

غادر ابن خلدون تونس فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) كما قدمنا ، فوصل الى ثغر الاسكندرية فى يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم الى مصر لينتظم منها فى ركب الحاج وإنه لبث بالاسكندرية شهرا يهيئ العدة لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية ، فقصد الى القاهرة[1] . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجته الظاهرة فى مغادرة تونس ؛ وكان مقدمه الى مصر ، كما رأينا نوعا من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٢

يقضى أيامه بمصر فى هدوء ودعة، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائما الى مراتب النفوذ والعزة؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، ولبلاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أوّل ذى القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن[١] ،وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فإن المؤرّخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحرية المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحا من الزمن مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم، ومحشر الأمم ، ومدرج الذّر من البشر، وإيوان الاسلام، وكرسى الملك؛ تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ النيل نهر ، ومدفع مياه السماء، يسيقه العلل والنهل سيحه، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه؛ ومررت

---

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦هـ — ١٣٢٦م فى عهد الناصر بن قلاوون .

فى سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم ...» .

ولم يكن ابن خلدون نكرة فى مصر، فقد كان المجتمع القاهرى يعرف الكثير عن شخصه وسيرته؛ وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه وذاعت نسخه الأولى قبل ذلك بقليل فى مصر وغيرها من بلدان المشرق ، وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معا : «وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذرا»[1] وهذا ما تشير اليه التراجم المصرية ؛ فيقول أبو المحاسن بن تغرى بردى فى ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدّر الإقراء بالجامع الأزهر مدّة، واشتغل وأفاد»[2] ويقول السخاوى : «وتلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه، وأكثروا ملازمته والتردد عليه، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدّة ... »[3] . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكى ، ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول، وغيرها مما عرض اليه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير

---

(١) كتاب العبر — ج ١ ص ٤٥٢

(٢) كتاب المنهل الصافى لابن تغرى بردى — نسخة دار الكتب الخطية رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠

(٣) كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع عشر للسخاوى — نسخة دار الكتب الفتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ، المجلد الثانى من القسم الثانى، ص ٣٦٧

اعلان عن غزير علمه، وشائق بحثه، وساحر بيانه. وكان ابن خلدون محدّثا بارعا رائع المحاضرة، يخلب الباب سامعيه بمنطقه وذلاقته. وهـذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه؛ ومنهم المؤرّخ الكبير تقى الدين المقريزى الذى سمعه ودرس عليه فتى[1]، وكذا الحافظ ابن حجر؛ فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا، فصيحا، حسن الترسل وسط النظم؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة »[2] ونقل السخاوى عن الجمال البشبيشى أنه « كان فصيحا مفوها جميل الصورة»، وعن الركراكى « ان محاضرته اليها المنتهى »[3].

وهكذا استطاع ابن خلدون لأوّل مقدمه أن يخلب ألباب المجتمع القاهرى، وأن يستثير إعجابه وتقديره؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى. وفى أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجوانى[4] فشمله برعايته، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به؛ وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق، وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤)،

---

(١) نعود الى تقدير المقريزى لشيخه ابن خلدون فيما بعد.

(٢) كتاب أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة دار الكتب الخطية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٣) الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى، ص ٣٦٩

(٤) هكذا اسمه فى « المنهل الصافى » ولكن السخاوى يسميه « الطنبغا الجوبانى ».

فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبرّ مقامى، وآنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرّخ من الإستقرار والمقام الهادئ فى ظل أمير يحميه ويكفل رزقه . ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية، بجوار جامع عمرو وهى من مدارس المالكية ، فعينه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون فى تعريفه، بوصف مجالسه الأوّل فى هذا المعهد، فقد شهده جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألقى ابن خلدون فى ذلك الحفل خطابا بليغا، يحرص على إيراده بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء فى شدّ أزر الدولة الاسلامية ، وعن تغلب الدول ؛ ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل فى نصرة الاسلام ، وإعزازه ، ومن هممم فى إنشاء المساجد والمدارس ، ورعاية العلم والعلماء والقضاة ؛ ثم دعا للملك الظاهر ، وأشاد بعزمه وعدله وعقله ؛ وعطف بعدئذ على نفسه، وما أوليه من شرف المنصب فى تلك العبارة الشعرية : « ولما سبحت فى اللج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب إلى المشرق، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق، وشجرة الملك التى اعتز بها الاسلام تهتز فى دوحه المعرق ، وأزهار الفنون يسقط علينا من غصنه المورق ... أولونى عناية وتشريفا ، وغمرونى إحسانا ومعروفا، وأوسعوا همتى إيضاحا ونكرتى تعريفا، ثم أهلونى للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ... الخ»[1] .

---

(١) لم يرد وصف هذا المجلس، ولا نص هذه الخطبة فى فصول «التعريف» =

وإنه لمنظر شائق ذلك الذى يقدّمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه فى ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذى يعتقد أنه أحدثه إذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتنى العيون بالتجلة والوقار »[1] . وفى ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون فى كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب إحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية . ثم كانت الخطوة الثانية فى ظفره بمناصب الدولة ، وتعيينه قاضيا لقضاة

= المطبوعة الملحقة بتاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) . ولكنهما وردا فى نسخة خطية أتم من التعريف تحفظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ م تاريخ) ص ١٠٨ — ١١٠ ؛ ونسخة التعريف المتداولة تقف فى ترجمة المؤرخ والتعريف به عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ (راجع كتاب العبر — طبعة بولاق ج ٧ ص ٤٦٢) حيث يختتم ابن خلدون فصول التعريف عن نفسه . ولكن نسخة دار الكتب الخطية التى ذكر فى نهايتها أنها نقلت عن نسخة أصلية للمؤلف تحتوى بعد ذلك على عدّة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر ، كتبها باسهاب عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب ، وعن بعض حوادث مصر الداخلية يومئذ ، ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه ملك التتار تيمورلنك فى دمشق وما دار بينهما من الأحاديث ثم عوده الى مصر . ويتخلل ذلك كله تعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدّمة . ويصل ابن خلدون فى رواية حوادث حياته هذه حتى سنة ٨٠٧ هـ . أعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط . وتشغل هذه الفصول فى النسخة الخطية المذكورة نحو أربعين صفحة كبيرة (من ص ١٠٧ حتى النهاية) . وسنعود الى الكلام عن «التعريف» فى فصل خاص .

(١) نسخة «التعريف» الخطية — ص ١١٠

المالكية فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦هـ (أغسطس ١٣٨٤م)[١] مكان القاضى المعزول جمال الدين بن خير السكندرى . وكان ارتفاعه إلى هذا المنصب الذى هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيذانا بوثوب العاصفة من حوله ، واضطرام تلك الخصومات التى كدرت صفو مقامه ، وأدالت نفوذه ، واقتلعته من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون فى سخرية : « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه إلى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية ، فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين أمرائه ، فتفاديت من ذلك ، وأبى إلا مضاءه »[٢] . وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات الملوكية » ، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم فى معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه إلى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط ، وإنما اختاره السلطان كما يقول ، « تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره » .

— ٢ —

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن

---

(١) يذكر ابن خلدون أن تعيينه فى هذا المنصب وقع لأول مرة فى رجب سنة ٧٨٦ . ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان فى جمادى الآخرة (السخاوى فى الضوء اللامع ؛ وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى كل فى ترجمته لابن خلدون — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أنه بدأ بمباشرة وظيفته فى رجب ، وأنه يجعل من التعيين وبدأ العمل واقعة واحدة .

(٢) نسخة التعريف الخطية — ص ١١١

حادثا عاديا . فقد كان أجنبيا ، وكان تقدّمه فى حظوة السلطان ، وفى نيل المناصب ، سريعا . وكانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذاً فقد تولى العلامة المغربى منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . وجلس بمجلس الحكم فى المدرسة الصالحية بحى بين القصرين ؛ فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء ، كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتّاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة ؛ وانه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض . يقول : « فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ؛ مسويا بين الخصمين ، آخذ الحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ، جانحا الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر ، والطيب متلبسا بالخبيث ؛ والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الإعتصام بأهل الشوكة ؛ فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ،

معلمون للقرآن وأئمة للصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ؛ ويقسمون الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ؛ فأعضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال ... » ثم يعدد نواحى الفساد التى شهدها ، وجد فى إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا لما اصطلح عليه زملاؤه القضاة من قبولها ، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت فى حقه السعاية لدى البلاط[١] .

وهذا التعليل الذى يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الخصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق . بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلا مشيرا الى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة وافرة ، وعظمة زايدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا فى التكلم فى أمره ... »[٢] . ويقول ابن حجر وينقله السخاوى : « فتنكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عيبه عليه فى الجملة ، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وشبهة الزج ،

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ .

(٢) المنهل الصافى — ج ٢ ص ٣٠١ .

فإذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصفع حتى تحمر رقبته»[1] . وفيما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص . وسنرى أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد فى نقده وتجريحه ؛ ولكن فى قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر فى قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حينما يقول عنه فى موضع آخر: «ولم يشتهر عنه فى منصبه إلا الصيانة» .

انقضت العاصفة على ابن خلدون اذاً لأشهر قلائل من ولايته ، وكثر السعى فى حقه والإغراء به حتى « أظلم الجو بينه و بين أهل الدولة» على حد تعبيره ، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف ومؤازرة . واصابته فى ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به ؛ ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس ، فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه فى تخلية سبيل أسرته ففعل ، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر . ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة فى قوله : «ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد . وصلوا من المغرب فى السفين ؛ فأصابها قاصف من الريح ، فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب» . ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء ، أو بعبارة أخرى ، حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا

(١) ابن حجر فى رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة ابن خلدون ؛ والسخاوى فى الضوء اللامع المجلد الثانى من القسم الثانى ص ٣٦٧ .

العزل جاء محققا لرغبته إذ يقول : « وشملتنى نعمة السلطان أيده الله فى النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها ، ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها ، فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطنى من عقالها ، فانطلقت حميد الأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء ، تلحظنى العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال فى بالعودة » والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا فى المجتمع القاهرى ، وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد اننا سنرى ، حسبما يشير فى قوله المتقدم ، انه كان يُرمى بجهل الأحكام والإجراءات وبأنه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء ، وبأنه كان مشغوفا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه .

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة فى السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) ، أعنى لنحو عام فقط من ولايته ، فانقطع إلى الدرس والتأليف كرة أخرى

على أن هذا العزل لم يكن إيذانا بسخط السلطان ونقمته ، فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره فى تواضع ظريف . واشتغل بالدرس فى المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان

وغمره بعطائه . وغادر القاهرة فى منتصف شعبان؛ وقصد الى الحجاز بطريق البحر؛ ثم عاد بعد أداء الفريضة، بطريق البحر أيضا حتى القُصير؛ ثم اخترق الصعيد بطريق النيل، فوصل القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ)؛ وقصد السلطان توا وأخبره بأنه دعا له فى الأماكن المقدسة، فتلقاه بالعطف والرعاية. ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش[١]، فولاه السلطان إياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية؛ وجلس للتدريس فيها فى المحرم سنة إحدى وتسعين، وألقى خطاب الإفتتاح كعادته فى حفل فخم، وأعلن أنه قد قرر للقراءة فى هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك؛ ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول فى ذلك اليوم، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه، ثم يقول لنا فى كبريائه المعهود : «وانفض ذلك المجلس، وقد لاحظتنى بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتى للمناصب القلوب، وأخلص النجا فى ذلك الخاصة والجمهور»[٢] .

— ٣ —

ثم عين المؤرخ فى وظيفة أخرى هى مشيخة (نظارة) خانقاه بيبرس، وهى يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجىء الصوفية[٣]، فزادت جرايته، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر برقوق، بطلها ومدبرها

---

(١) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولونى على مقربة من القلعة .

(٢) التعريف (النسخة الخطية) — ص ١٢١

(٣) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع فى طريق باب النصر على مقربة منه .

الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ؛ وكانت نظم البلاط القاهرى وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والخيانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن ؛ وكان يلبغا الناصرى نائب السلطنة من قبل ، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان ؛ وكان الظاهر برقوق من جملة أمرائه وتابعيه ؛ ولكنه استطاع فى فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤) أن يظفر بالعرش دونه ، وأن يجرده من سلطته ونفوذه ، وأن يقصيه الى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار الى القاهرة فى أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصرى القاهرة ، وأعاد الصالح حاجى السلطان المخلوع الى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجينا الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، فقبض على الناصرى ، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذى استطاع أن يفر من سجنه ؛ فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافرا منصورا ، واسترد عرشه فى صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط من عزله . ويخصص ابن خلدون فى «تعريفه» فصلا لهذه الحوادث[1] ، ويمهد له بشرح فلسفى اجتماعى يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فيها روحا جديدا من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول المماليك المصرية منذ صلاح الدين ، ويقص تاريخها باختصار . وهنا

---

(١) راجع هذا الفصل فى التعريف (النسخة المخطوطة) ص ١٢٢ وما بعدها — وراجع خطط المقريزى (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٢

يبدو ابن خلدون كما يبدو فى مقدمتـه ، ذلك الفيلسوف الاجتماعى الذى يعنى بتعليـل الظواهر والكائنات ، واستقرائها فى حوادث التـاريخ .

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جراء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذى يتمتع بعطفه ورعايته . فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه . يدل على ذلك قوله فى التعليق على عود الظاهر : «ثم أعاده الى كرسيه للنظر فى مصالح عباده ، وطوقه القلادة التى ألبسه كما كانت ، فأعاد لى ما كان أجراه من نعمته»[1] .

ولبث ابن خلدون على ذلك أعواما ينقطع للبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧) ، فى الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخـه . ولكنه يمضى فى هذا التعريف مراحل أخرى ، فى النسخة المخطوطة التى أتينـا على ذكرها ؛ ويفصـل حوادث حيـاته حتى مختتم سـنة ٨٠٧ ، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر . والنسخة المخطوطة أكثر تفصيلا وإسهابا حتى فيما تتفق فيه مع النسخة المتداولة من مراحل الترجمـة ؛ ولهذا آثرنا الرجوع اليهـا الى جانب النسـخة المتداولة فى كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن النسخة المخطوطة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس فى حيـاة ابن خلدون فى هذه الفترة ما يستحق الذكر

---

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٦٢

سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهرى وسلاطين المغرب . ويجمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بنى مرين؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية؛ ثم يعطف على مساعيه فى عقد الصلة بين الملك الظاهر وسلطان تونس؛ وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على اهداء ملك مصر، فأرسل اليه هدية من الجياد النادرة، ولكنها غرقت مع السفينة التى كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدّمنا . وورد الملك الظاهر بإهداء سلطان تونس؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين الى المغرب ليشترى عددا من الجياد، فزوّد ابن خلدون الرسل بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا بهدية نخمة كان سلطان تونس قد أعدها وتأخر ارسالها؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب، ومنها خيل مسومة، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ثم يقول لنا إنه شعر يومئذ بالفخر وحسن الذكر بما « تناول بين هؤلاء الملوك من السعى فى الوصلة الثابتة على الأبد » .

الفصل السابع
فى دمشق وفى معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون الى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية الناصر فرج . رحلة ابن خلدون الى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار للشام . مسير الناصر فرج الى لقاء الغزاة . استصحابه لابن خلدون الى دمشق . عوده بفأة الى مصر . نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسيره الى معسكر تيمورلنك . وصفه للقائه مع الفاتح . حديثه مع تيمورلنك . رسالته عن جغرافية المغرب . حديث الخلافة مع الفاتح . هدية ابن خلدون لتيمورلنك ، ومفاوضاته فى الصلح . رواية المقريزى وابن اياس وابن عربشاه عن هذه المفاوضات . استئذان ابن خلدون للفاتح فى السفر . عوده الى مصر . سعى ابن خلدون الى استعادة منصب القضاء . ولايته للمرة الثالثة . اضطرام الدسائس من حوله . ذروة المعركة بينه وبين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء والعزل منه . وفاة ابن خلدون .

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيدا عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاما ، يحول بينه وبين توليه ، على قوله ، ذلك الجناح من البلاط الذى شغب فى حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه . وكان ذلك فى منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التنسى قاضى المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيّوم يعنى بضم قمح ضيعته التى يستحقها من أوقاف المدرسة "القمحية" فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة

الثانية . ثم توفى السلطان بعدئذ بقليل، فى منتصف شوال؛ فخلفه ولده الناصر فرج؛ وسرى الاضطراب الى شئون الدولة، واضطرمت الفتن والثورات المحلية حينا . فلما استقرت الأمور نوعا، استأذن المؤرخ فى السفر الى بيت المقدس، فأُذن له؛ وجال ابن خلدون فى المدينة المقدسة، يتفقد آثارها الخالدة؛ وشهد المسجد الأقصى، وقبر الخليل، وآثار بيت لحم، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القُمامة (قبر المسيح) . يقول لنا "وبناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم، فنكرته نفسى، ونكرت الدخول اليه" ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام فى ظاهر مصر، ودخل معه القاهرة فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢

وفى المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسنرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ، وأن تكراره كان مظهرا بارزا لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ — ١٤٠٠م)[١] ثم اخترق الشام جنوبا الى دمشق . فروعت مصر لهذه الأنباء، واضطرب البلاط أيما اضطراب، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء

---

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب فى المقريزى : السلوك فى دول الملوك — (مخطوط دار الكتب المصرية) — ج ٣ ورقة ٢٣

والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التى ذكرته بما عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتملص، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان "بلين القول، وجزيل الانعام" (١) . ويفرد المؤرخ فصلا لحوادث هذه الحملة، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاچقة . وكان سفر الحملة فى ربيع الثانى سنة ٨٠٣، فوصلت الى دمشق فى جمادى الأولى، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء فى المدرسة العادلية، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح فى ظاهر دمشق فى معارك محلية. ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافا حدث فى معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه، وتولية أمير آخر يدعى لاچين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا الى القاهرة فوصلها فى جمادى الآخرة (٢) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشى أن تقع المدينة فى يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالجرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقا على

---

(١) التعريف : النسخة المخطوطة . ويقول المقريزى إن أوامر السلطان ليشبك كانت صريحة فى ارغام ابن خلدون على السفر (السلوك — ج٣ ورقة ٢٤).

(٢) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٦

ما شجر بين القادة من خلاف" وبلغنى الخبر، فخشيت البادرة على نفسى ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج ، أو التدلى من السور لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر"(١) . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوه من السور، وألفى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذى عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، والتمس منهم مقابلة تيمور، فساروا به الى المعسكر وأدخل فى الحال الى خيمة الفاتح . ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير فى قوله : "ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئا على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشريها الى عصب المغل، جلوسا أمام خيمته حلقا حلقا . فلما دخلت عليه، فاتحنيت بالسلام وأوميت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد يده الى فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعانى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعده يترجم بيننا"(٢) .

وتحدث الفاتح طويلا الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه وأحواله وسلاطينه، وطلب اليه أن يكتب له رسالة فى وصف المغرب. وحدثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده ، وشرح له طرفا من آرائه ونظرياته الاجتماعية فى العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة

---

(١) التعريف : النسخة المخطوطة .

(٢) التعريف : النسخة المخطوطة .

فى شأن المدينة وقعت أيضا بين المؤرخ والفاتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ؛ فقد فتحت دمشق أبوابها للفاتح على أثر ذلك ، وجاء القضاة والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ إلى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة . ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حينا ؛ ثم انصرف واشتغل أياما بكتابة رسالة فى وصف بلاد المغرب حتى أتمها و بلغت على قوله اثنتى عشرة كراسة صغيرة ، ثم قدمها إلى تيمورلنك فأمر بترجمتها إلى اللغة المغولية[1] .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش الفاتح ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة فى المقاومة فشددوا عليها الحصار حتى سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب وأضرموا النار فى معظم أحيائها ؛ وتكررت المناظر المروعة التى وقعت فى حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع صلته بالفاتح بل لبث متصلا به يتردد لزيارته خلال المحنة ؛ وحدثه تيمورلنك ضمن ماحدث بأمر شخص تقدم اليه مدعيا بالخلافة وأنه سليل بنى العباس ، وجرت مناقشات فقهية طويلة فى شأنه اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته فى الخلافة . وقدّم ابن خلدون أيضا إلى الفاتح هدية هى « مصحف رائق وسجادة أنيقة ونسخة

---

(١) لم تصل الينا هذه الرسالة التى كتبها ابن خلدون فى وصف بلاد المغرب ، ولكن المرجع أنها لم تكن سوى صورة مفصلة مما كتبه فى ذلك فى تاريخه الكبير فى القسم الذى يخصصه لتاريخ البربر و يمهد له بوصف عام فى جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر — ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها) .

من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين فى مجلسه . والتمس المؤرخ منه فى هذا المجلس أمانا للقضاة والرؤساء والعمال فأجابه الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هى رواية ابن خلدون عن صلته بالفاتح التترى ، وما وقع له معه من المحادثات والمقابلات، وقد كان فيها يؤدّى دور السياسى القديم . ولكن مؤرخا مصريا كبيرا معاصرا هو المقريزى يفصل هذه الحوادث تفصيلا آخر فيقول لنا إن الذى فاوض تيمورلنك فى تسليم دمشق هو القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى ؛ أرسله الزعماء الى الفاتح إجابة لطلبه فى عقد الصلح بعد أن فشل فى اقتحام المدينة بالعنف، وان ابن مفلح بذل نفوذه لإقناع الزعماء بالتسليم، وأنه هو الذى تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان والفقهاء ، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر منه الأمان، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغائبه فى جمع المال والأسلاب . ولكن تيمورا نكث بعد ذلك عهده، وقبض على ابن مفلح وزملائه ، واقتحم جنده المدينة ونهبوها واضرموا النار فيها[١] . ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية[٢] . على أن المقريزى يؤيد رواية ابن خلدون

---

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٧

(٢) ابن اياس فى «تاريخ مصر» (بولاق) ج ١ ص ٣٣١ و ٣٣٢

فى مكان آخر فيقول لنا إنه « لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار الى تيمورلنك، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده ؛ ثم أذن له بالمسير الى مصر فسار اليها »، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه جماعة بشفاعته[1] .

وابن خلدون صريح فى روايته فى أنه هو المفاوض والوسيط فى عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وانه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ؛ ولا شك عندنا فى روايته . وهى من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقى مؤرخ تيمورلنك الذى كتب تاريخه قريبا من هذه الحوادث فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة، ويصور لنا فى عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات[2] . على أن صحة هذه الرواية لاتمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك فى المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالا أخرى غير ما وفق اليه فى شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة ؛ ولعله كان يرجو الانتظام فى بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب فى ظل رعايته ونعمائه . على أنه لم يوفق بلا ريب إلى تحقيق مثل هذه الأمنية ؛ فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق، وذهب إلى تيمور يستأذنه فى العود إلى مصر، فأذن له وطلب اليه فى تلك

---

(١) السلوك — ج ٢ ورقة ٢٨

(٢) ابن عربشاه فى كتاب «عجائب المقدور» (مصر) ص ١٢٣ وما بعدها . وراجع كتابى « مصر الاسلامية » ص ١٢١

المقابلة أن يقدم اليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها، وبعث اليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق فى شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه اليها؛ ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه؛ ولكنه وصل سالما إلى القاهرة فى أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمائة .

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطا بنجاته «وحمدت الله على الخلاص» ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق، يصف هذه الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك، ويصف له الفاتح وعظم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

— ٢ —

وما كاد ابن خلدون يستقر فى القاهرة حتى أخذ يسعى للعود الى منصب القضاء . وقد رأينا انه كان يحتفظ دائما بكرسى التدريس فى مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ؛ وكان ابن خلدون يشعر وهو فى ذلك الجو المشوب بكدر الخصومة والمنافسة، انه بحاجة الى ذلك النفوذ الذى اعتاد أن يتمتع به فى جميع علائقه السلطانية؛ وكانت المعركة التى تضطرم حول ذلك الكرسى، والتى شهدنا مظاهرها فى تكرار تعيينه وعزله، تذكى بلا ريب فى نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسى، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع ابدا الى مسند النفوذ والجاه . ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة فى اشارة موجزة إذ يقول لنا فى خاتمة ترجمته للمؤرخ «رحمه الله، ما كان أحبه

فى المنصب »[١] . وكان ثمة شىء آخر الى جانب هـذا الشغف بالمنصب ، فقد كان بين ابن خلدون و بين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة ، يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته فى القصر وان يتغلب على كيد خصومه ، و يفقده كلما نجحت سعاية خصومه فى حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية فى المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا فى ركب السلطان الى الشام ، فاتخذ خصومه بعـده عن القاهرة فرصة للدس فى حقه ، وزعم بعضهم انه هلك فى حوادث دمشق[٢] . و يريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظا له أو انه وعد على الأقل برده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا انه على أثر هـذا الإرجاف فى حقه عين مكانه فى قضاء المـالكية ، جمال الدين الاقفهسى (جمادى الثانية سـنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الاقفهسى ، وولى ابن خلدون للمرة الثـالثة فى أواخر شـعبان أو أوائل رمضان[٣] ، فلبث فى منصبه زهاء عام يعمل فى جو يفيض بالأحقاد والخصومة ، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وانه استمر كما كان «من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض» . فاضطرمت

---

(١) ابن تغرى بردى ، فى المنهل الصافى — ج ٢ ورقة ١ ٠ ٣ .

(٢) التعريف : فى النسخة المخطوطة .

(٣) يذكر ابن خلدون فى التعريف أن تعيينه هذه المرة كان فى «أواخر شعبان» ولكن ابن تغرى بردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١ ٠ ٣) و يقول ابن إياس انه كان فى ١٣ رمضان (تاريخ مصر ١ ص ٣٣٧) .

من حوله الدسائس القديمة، واشتدت فى حقه المطاعن والمثالب، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة، وعزل المؤرخ كرة أخرى فى ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤)، وولى مكانه جمال الدين البساطى فى أواخر رجب، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل. والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحا وصراحة، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه مالم يعان من قبل، حتى انه طُلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير، ووُجه اليه كثير من التهم. ويقول لنا ابن حجر والسخاوى فى هذا الموطن : « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أمورا كثيرة أكثرها لا حقيقة له، وحصل له الإهانة مالا مزيد عليه »[1]. وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر، وبقى مظهرها التداول على المنصب، ولكنه انحصر حينا بين ابن خلدون والبساطى، مما يدل على ان البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوىء المؤرخ فى هذا الدور من المعركة. والظاهر أيضا أن ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثرا مما يعتمدون عليه؛ فانه لم يمض على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة، واستمر فى المنصب عاما وشهرين؛ ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الاول سنة ست (٨٠٦)، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع؛ وأعيد

---

(١) ابن حجر فى كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » (مخطوط دار الكتب السالف الذكر) ورقة ١٥٩ — وينقله السخاوى فى الضوء اللامع.

ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ؛ وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ؛ ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسى لمدة يومين فقط ؛ ثم أعيد البساطى فى ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته ؛ ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث فى منصبه بضعة اسابيع فقط[1] . وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦م) توفى المؤرخ والمفكر الكبير ، قاضيا للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ، ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر[2] ، وهى يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . ويصل ابن خلدون فى تدوين أخبار هذا النضال العجيب حتى عزله للمرة الخامسة فى ذى القعدة سنة سبع اعنى الى ما قبل وفاته بعدة اشهر فقط .

---

(١) راجع فى أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل — ابن خلدون نفسه فى التعريف (النسخة الخطية ص ١٤٧) ، وحسن المحاضرة للسيوطى (مصر) ج٢ ، ص ١٢٣ ، والمنهل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة فى التواريخ فى مختلف الروايات .

(٢) السخاوى فى الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٧٠ .

الفصل الثامن

ابن خلدون والتفكير المصرى

ابتعاد ابن خلدون فى مصر عن أحداث السياسة . إنتاجه الأدبى فى هذه الفترة . حكم ابن خلدون على المصريين . بذور الخصومة بينه وبين المجتمع القاهرى . حملات الكتاب المصريين عليه . موقف الحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الركراكى والبشبيشى والعينى فى حقه . حملة السخاوى عليه . الجناح الذى يؤازره من الكتاب المصريين . تقدير المقريزى له ولتفكيره . تأثر المقريزى بتفكيره ونظرياته . ظهور هذا التأثير فى كتابات المقريزى . نظريات المقريزى فى أسباب محن مصر . شهادة أبى المحاسن لابن خلدون . اقتباس القلقشندى من آثاره . حياة ابن خلدون فى مصر . عزلته وآلامه المعنوية . أين كان يقيم فى القاهرة . أين يثوى الثواء الأخير .

— ١ —

قضى ابن خلدون فى مصر ثلاثة وعشرين عاما (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجا .

فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التى قضاها ابن خلدون بالمغرب ، والتى جاز خلالها معتركا شاسعا من المغامرات والدسائس الخطرة ، وعانى كثيرا من الخطوب والمحن ، كما نعم مرارا بمراتب النفوذ والسلطان ، والتى هى فى الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب فى أواسط القرن الثامن ؛ هذه الحياة المضطرمة العاصفة ، استبدلها المؤرخ فى مصر بحياة أكثر هدوءا ودعة .

وفى مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ؛ يتجرد من ثوب السياسى المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ، وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية . على أن المؤرّخ لقى فى هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ولقاؤه للفاتح التترى تيمور لنك .

وأما عن الإنتاج الأدبى ، فقد رأينا أن المؤرّخ حقق أعظم أعمال حياته ، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفا جديدا ؛ غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتب والمراجع الشاسعة ، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهذيب والإضافة فى التاريخ والمقدّمة ؛ وسنرى فى فصل قادم أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما فى أنباء الدول الإسلامية بالمشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره ، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٨٨٣ ، عام الفراغ من وضع مؤلفه . كذا استمر المؤرّخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولا جديدة عن خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفا لبلاد المغرب ورفعه الى تيمور لنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببث مبادئه وآرائه الإجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشىء له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بآرائه ومناهجه ، وقد كان حريا أن ينشئ مثل هـذه المدرسة فى بلد انقطع فيـه للبحث والدرس أعواما طويلة . نعم إن التفكير المصرى المعاصر ليس خلوا من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذى كان حريا أن يزدهر بمصر وأن ينبث فى مدرستها التاريخيـة التى كانت يومئذ فى أوج قوتها ، كان ضئيلا محـدود المدى . ونستطيع أن نُرجع ذلك الى الروح الذى استُقْبِل به المؤرّخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ؛ فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين فى مقدّمته بأنهم قوم « يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب »(١) ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة فى معرض كلامه عن أثر الهـواء فى أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر فى المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى فإنها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت فى حقهم بغير الإستياء والحفيظة . وكان طبيعيا أن يحدث هـذا الغرس السيىء أثره فى شـعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرّخ . وكان هـذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الجفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء فى ميدان التفوق والنبوغ ، أو فى تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الأدبى ينقسم عندئذ الى

(١) المقدّمة — ص ٧٣

شيع وطوائف تنحاز كل شيعة أو طائفة الى زعيم أو جناح معين من الزعماء فتؤيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه فى ميدان الجدل . فلم يكن من السهل على أجنبى مثل ابن خلدون جاء ينتظم فى سلك هذا المجتمع منافسا فى طلب الجاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق ، أو يلقى خالص المودة والصداقة . هذا إلى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الجفاء والقطيعة .

كان طبيعيا أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه فى هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير وأن تكون محدودة الذيوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جليا فى بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . وممن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير ؛ فهو يقول لنا فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مرارا وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصا فى التاريخ » وإنه « كان لسنا فصيحا حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة » ، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعا فيه[1] . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل فى ترجمته كثيرا مما قيل فى ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا فى تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار

---

(١) رفع الإصر (المخطط المشار اليه) ورقة ١٦٠ — ونقله السخاوى فى الضوء اللامع

المشرق»[١] ويعارض المقريزى فى مدح المقدمة ويرى أنها لاتمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة ، « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يُرى حسنا ماليس بحسن »[٢] وأما ابن خلدون كقاض فإن ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر ، وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عُزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس فى ورقة[٣] ؛ ثم ينقل فى هذا الموطن كثيرا مما قيل فى ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك « ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفه[٤] ، كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك» ومن ذلك قول الركراكى أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرِى عن العلوم الشرعية » بل ينقل ابن حجر أيضا بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التى قيلت فى حق المؤرخ ؛ من ذلك ما نقله عن العينتابى وهو أنه كان يتهم بأمور قبيحة[٥] ؛ وما نقله عن كتاب القضاة للبشبيشى ، وهو «أن ابن خلدون كان فى أعوامه الأخيرة يشغف بسماع المطربات ومعاشرة الأحداث وانه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط » وانه

(١) أنباء الغمر فى أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) — ج ١ ص ٧١١

(٢) رفع الإصر — ورقة ١٦٠

(٣) رفع الإصر — ورقة ١٥٩

(٤) ابن عرفه مفتى تونس ، وكان خصما لابن خلدون كما قدمنا

(٥) أنباء الغمر — ١ ص ٧١١

كان « يكثر من الازدراء بالناس ، وانه حسن العشرة إذا كان معزولا فقط فاذا ولى المنصب غلب عليه الجفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغى أن لا يرى » . وهذه أقوال تنم عن خصومة مضطرمة، ومبالغــة فى الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى [١] بلا ريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ فى كتاب ألفه فى تاريخ القضاة ولم يصل الينا ولكن ابن حجر ينقل الينا منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيرا يقول ابن حجر إن ابن خلدون كان يتمسـك بزيه المغربى ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشىء سوى حبه المخالفة فى كل شىء [٢] .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو إلى التأمل ؛ فهو على رغم اتزانه واعتـداله وتحفظـه ينسـاق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفا فى كتاباته . ولا ريب أن فى لهجته وأقواله مبالغة وتحامل . ولكن لا ريب أيضا أن لها قيمتها فى تقدير الرأى المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشـتد فى تجريحـه

---

(١) وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حينا "ترجمته فى الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١ "

(٢) رفع الإصر فى مواضع مختلفــة من ترجمة ابن خلدون — الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠

والحملة عليه ؛ وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيرا من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، والجمال البشبيشى ، والركراكى ، وبدر الدين العينى (العينتابى). وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى فى أواخر هذا القرن يردد كل ماذكره ونقله شيخه ابن حجر فى ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن فى لهجة مرة لاذعة تنم عن الخبث وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تنم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة ؛ بيد أنه يعترف فى كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ، ويبدو أكثر اعتدالا وتقديرا[1] .

— ٢ —

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوى من الرأى المصرى المفكر. وكان على رأس هذا الفريق المؤرّخ العلامة تقى الدين المقريزى . فقد درس المقريزى فى فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، ورائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدّث المقريزى عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته «بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة »[2] ويتتبع أخباره فى مصر والشام فى كتابه « السلوك » ويترجمه فى كتابه « درر العقود الفريدة » باسهاب وإعجاب ،

(١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ — (مصر) ص ١٥١

(٢) راجع خطط المقريزى — ج ٢ ص ٧٦و ١٩٠

ويرتفع فى تقدير مقدّمتــه إلى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد مناله ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ؛ توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء سرى به النسيم »[١] . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدّمنا . ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوى على المقريزى موقفه من ابن خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط فى تعظيمه وإجلاله ؛ ويقدّم إلينا ابن حجر تعليلا لهذا الموقف ، هو أن المقريزى كان ينتمى إلى الفاطميين وابن خلدون يجزم باثبات نسبهم ، ثم يقول لنا ، إن المقريزى غفل فى ذلك عن مراد ابن خلدون ، فإنه كان لانحرافه عن آل على ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب إلى الزندقة وادعى الألوهية[٢] .

وقد تأثر المقريزى فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته تأثرا كبيرا . وظهر هذا الأثر واضحا فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » الذى انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار

---

(١) لم يصلنا من « درر العقود الفريدة » سوى قطعة صغيرة . واعتمادنا هنا على ما نقله السخاوى وابن حجر عن المقريزى — فى الضوء اللامع للسخاوى ؛ وفى رفع الإصر وأنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الإصر — الورقة ١٦٠ — ونقله السخاوى فى الضوء اللامع .

الكتب المصرية[١] .

ففى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقريزى إنه كتبه فى ليلة واحدة من ليالى المحرم سنة ٨٠٨ ، والذى يتحدّث فيه عن محن مصر منذ أقدم العصور إلى عصره ، ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدّمته . فيقدّم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر ، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشرق منذ الطوفان إلى عصره ، ثم يفرد لنا فصلا يتحدّث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدّت إلى استمرارها طوال هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون فى البحث والتعليل واضحا ، بل نرى المقريزى يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل « أحوال الوجود وطبيعة العمران » وما اليها .

وفى رأى المقريزى أن أسباب الخراب والمحن ، ترجع أولا : إلى تولية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها ، وثانيا : الى غلاء ايجار الأطيان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الانتاج) على الغلة ، وثالثا : الى ذيوع النقد المنحط ، ويتبع ذلك بنبذة فى تاريخ العملة فى الدول الاسلامية ومصر . ثم يتحدّث عن طبقات المجتمع ، وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى إلى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

---

(١) توجد هذه النسخة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم (٧٧ مجاميع م) وتشغل فيها من الورقة ١٤ إلى الورقة ٤٣

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، وأصحاب المعاش وهم السوقة .
(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف .
(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم .
(٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن .
(٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكففون الناس .

ويذكر المقريزى أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية، ويختتم بشرح رأيه فى معالجة هذه المحن، وهو أن يغير نظام العملة، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضة ، وهى فكرة تثبيت النقد بعينها .

هكذا ينحو المقريزى فى الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحا فى منهج تلميذه ، ونستطيع أن نجد كثيرا من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقريزى فى رسالته ، وبين ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فساده، وعن السكة، وعن أثر المكوس فى الدولة، وأثر الظلم فى خراب العمران، وكيف يسرى الخلل الى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط ، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها،[1] بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر فى بعض ما كتبه السخاوى نفسه فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره فى دراسة أحوال

---

(١) راجع هذه الفصول فى مقدّمة ابن خلدون، ص ١٤٠ — ١٤١ و١٥٧ — ١٥٨ و٢١٧ — ٢٢٠ و٢٤٦ و٢٥٢ .

الأمم، فهنا يبدو السخاوى أيضا رغم خصومته لابن خلدون متأثرا بفكرته الفلسفية فى شرح التاريخ وفهمه .

وهنالك مؤرخ مصرى آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقريزى تقديره لابن خلدون، ويشيد بمقدرته ونزاهته فى ولاية القضاء، ويقول لنا انه باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته[١] .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضا فى اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندى صاحب كتاب « صبح الأعشى » فانه يقتبس من ابن خلدون فى مواضع شتى من موسوعته[٢] .

— ٣ —

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون فى مصر، وصلاته بحياتها العامة ، وأثره فى حركتها الفكرية المعاصرة .

وهذه الحقبة من حياة المؤرخ ، وهى حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاما ، تخالف فى نوعها وظروفها حياته بالمغرب؛ ففى المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسيا يتقلب فى خدمة الدول والقصور المغربية، ويخوض غمر دسائس ومخاطرات لا نهاية لها . ولكنه عاش فى مصر عالما وقاضيا، واذا استثنينا مفاوضاته مع تيمورلنك فى حوادث دمشق، وسعيه الى عقد الصلة بين بلاط

(١) المنهل الصافى — ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

(٢) راجع « صبح الأعشى » ج ٤ و ٥ و ٦ ففيها أمثلة كثيرة من هذا الاقتباس .

القاهرة وسلاطين المغرب، فانه لم يتح له أن يؤدى فى سير السياسة المصرية دورا يذكر . وإذا كان ابن خلدون قد خاض فى مصر معترك الدسائس أيضا، فقد كان هذا المعترك محليا محدود المدى، شخصيا فى نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون فى مصر أكثر استقرارا ودعة، وأوفر ترفا ونعماء من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن سحبا من الكآبة والألم المعنوى كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون فى مصر غريبا بعيدا عن وطنه وأهله، وكان يعيش فى جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد فى نفس المؤرخ فى بعض المواطن، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وآنس غربته »، وهو يكشف لنا عن هذا الألم فى مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملا فى إذكاء هذا الألم المعنوى، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة فى فترات كثيرة؛ وهو يشير إلى ذلك فى بعض المواطن، حيث يقول لنا انه : «لزم كسر البيت ممتعا بالعافية لابسا برد العزلة» . وتشير التراجم المصرية الى هذه العزلة فيقول لنا السخاوى : « ولازمه (أى المؤرخ) كثيرون فى بعض عزلاته، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل فى هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب

والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشير الى ذلك في عدّة مواضع .

وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة. ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشبيشي؛ ويقول الجمال في أولها : « انه كان يوما بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه ... ... » فيلوح من هـذه الإشارة ان المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحيـة في الحى الذى تقع فيه هذه المدرسـة أعنى حى بين القصرين أو في أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته كقاض للقضاة كان بهذه المدرسة ولان إيوان الفقهاء المـالكية كان يقع بجوارها[١] . وأما في النص الثانى فيقول لنا الجمال ما يأتى مشيرا الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عوده من دمشق سـنة ثلاث وثمانمـائة : « الا أنه (أى ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ... الخ »[٢] . ويستفاد من ذلك ان المؤرخ كان يقيم في هذا الحين في أحد الأحياء الواقعة على النيل ، ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من الفسطاط ، حيث كانت لاتزال بقية من الأحياء الرفيعة التى قامت هنالك مذ خطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط في أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة في الضـفة المقابلة لها من الفسـطاط .

---

(١) راجع خطط المقريزى — ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص . ويراجع النصان في كتاب رفع الإصر لابن حجر في ترجمة ابن خلدون .

ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التى كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحى .

هـذا وأما مثوى المؤرخ الأخير، فقد ذكر لنا السخاوى أنه دفن «بمقابر الصوفية خارج باب النصر» . ويحدّثنا المقريزى عن موقع هذه المقابر[١] وقد كانت تقع بين طائفة من الترب والمدافن التى شيدها الأمراء والكبراء فى القرن الثامن خارج باب النصر فى اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية الخانقاه الصلاحية فى أواخر القرن الثامن فى هذا المكان وخصصت لدفن الصوفيـة ، وقد كان المؤرخ كما نذكر، مدى حين شـيخا لخانقاه بيـبرس .

فهل يكشف لنـا الزمن يوما عن مثوى رفات المفكر العظيم فيغدو قبره أثرا جليلا يحج اليه المعجبون برائع تفكيره وخالد آثاره ؟

---

(١) الخطط — ج ٢ ص ٤٦٣ .

الكتاب الثانى

تراث ابن خلدون
الفكرى والاجتماعى

الفصل الاول

علم العمران كما يعرضه ابن خلدون

فهم ابن خلدون للتاريخ . علم العمران أو الإجتماع البشرى . كيف يعتبره اساسا لفهم التاريخ . تحليله لظواهر المجتمع . تقسيمه لعلم العمران . محتويات المقدمة . نقد ابن خلدون لكتاب التاريخ . استعراضه لموضوع علمه . نظريته فى العصبية . ابن خلدون والعرب . حملته عليهم . حديثه عن الدوله والملك . نظريته فى عمر الدولة . الملك وأصنافه . نشأة المدن والامصار . المعاش ووجوه الرزق . انواع العلوم .

يمتاز ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين المسلمين بل عن جميع المؤرخين قبله بأنه نظر الى التاريخ كعلم يستحق الدرس لا رواية تدون فقط. وقد أراد أن يكتب التاريخ على ضوء منهج جديد من الشرح والتعليل، فانتهى به التأمل والدرس الى وضع نوع من الفلسفة الإجتماعية ؛ وكتب مقدمة مؤلفه التاريخى لتكون شرحا وتمهيدا يقرأ على ضوئها التاريخ وتفهم وقائعه، فجاءت وحدة مستقلة من الإبتكار الفائق، تسجل مذهبا جديدا فى فهم الظواهر الإجتماعيه وتعليلها، وفى فهم التاريخ ونقده وتحليله .

ويصف لنا ابن خلدون هذا البحث الجديد الذى وفق اليه بأنه علم مستقل بنفسه ، وأنه ذو موضوع خاص «وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى» وذو مسائل «هى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى» . ويقول لنا إن هذا العلم «مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة» انتهى اليه

بالبحث الخاص، ولم يقف لأحد قبله على كلام فيه، اللهم الا اذا كان القدماء الذين عفت آثارهم ولم تصلنا، فهو أول من وضعه ونظم أصوله وشروحه .

ولهذا العلم الجديد الذى ابتكره ابن خلدون، فى فهم التاريخ، ودرسه اهمية كبيرة، فهو فى رأية قانون لتمحيص الحق من الباطل فى الرواية و إظهار الممكن والمستحيل ؛ وذلك «بأن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، و بمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له ؛ واذا فعلنا ذلك، كان ذلك قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار، والصدق من الكذب، بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه» ، ومحاولة فهم التاريخ على هذا النحو هى التى حملت ابن خلدون على درس هذا الموضوع الجديد ، وهو ما يسميه العمران أو الإجتماع البشرى[1] .

بيد أن ابن خلدون ينظر الى موضوعه من أفق شاسع جدا، ويجعل من المجتمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطواره منذ نشأته و بداوته الى استقراره وانتظامه فى المصر والدولة ؛ وتردده بين الضعف والقوة، والفتوة والكهولة ، والنهوض والسقوط ؛ ويستقصى خلال ذلك ، أحوال هذا المجتمع وخواصه، وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة، وما يعرض لهذه العناصر فى حياتها الخاصة والعامة من الظروف

---

(١) المقدمة — ص ٣١

والأحوال ؛ وما تقتضيه سلامة هـذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ، فهو فى الواقع يعالج مادة شاسعة تفوق تعريفه الأول .

وفى مكان آخر يلخص ابن خلدون ، مادة علمه من النـاحية الموضوعية فى انها «ما يعرض للبشر فى اجتماعهم من احوال العمران فى المُلك والكسب والعـلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضح بها التحقيق فى معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك» (١) ثم يقسم بعد ذلك موضوعه الى ستة فصول كبيرة هى :

الأول — فى العمران البشرى على الجملة واصنافه وقسطه من الأرض .

الثانى — فى العمران البدوى وذكر القبائل والأمم الوحشية .

الثالث — فى الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية

الرابع — فى العمران الحضرى والبلدان والأمصار .

الخامس — فى الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

السادس — فى العلوم واكتسابها وتعلمها (٢) .

وهذا التقسم الإجمالى يقدم الينا فكرة عما يرى ابن خلدون أنه مادة لهذا العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى . وهو تقسيم تبدو دقته وبراعته متى استعرضنا بعـد ذلك مواد مقدمتـه كلها ، ورأينا كيف ينبسط الموضوع ويتشعب الى أبعد الحدود ، وكيف ينظم ابن خلدون حلقات بحثه فى سلسلة وثيقة الإتصال والتماسك ، تشهد بتفوق هذا الذهن العبقرى ، وطرافته ، وقوة تدليله وجدله .

---

(١) المقدمة — ص ٣٣ .

(٢) المقدمة — ص ٣٤ .

— ٢ —

لسنا نحاول فى هـذه الرسالة أن نتناول فلسفة ابن خلدون ونظرياته الإجتماعية بالتحليل والنقد [١] ، فتلك مهمة لا يتسع لها هذا المقام الضيق . ولكنا نحاول فقط أن نستعرض محتويات مقدّمته بإيجاز، وأن نقف قليلا ببعض نظرياته الإجتماعية .

يبدأ ابن خلدون مقدّمته بالحديث عن قيمة التاريخ ومذاهبه وعما يرتكبه المؤرخون من الأخطاء فى إيراد الأخبار والوقائع ، سواء بعامل الغرض والتحيز ، أو بعامل السهو والجهل بقوانين العمران وأحوال المجتمع ، وعدم الدقة والتمحيص فى تقدير الممكن والمستحيل . ثم يمثل لذلك بعدّة أمثلة يناقشها ويحاول أن يبين وجه الخطأ فيها . بيد أن هذه المناقشة لا تخلو أحيانا من الضعف أو الهوى . فأما الضعف فيبدو مثـلا فى أسباب دحضـه لقصة العباسـة أخت الرشـيد مع جعفر البرمكى، وفى دفاعه عن خلال الرشيد، ثم دفاعه عن خلال المأمون [٢] . وأما الهوى فيبـدو مثلا فى حديثـه عن نسب الخلفـاء العُبَيديين (الفاطميين) ، ونسب الأدارسـة بالمغرب الأقصى ، ومحاولته نقض المطاعن التى توجه الى نسبيهما [٣] . وقد رأينا أن حياة ابن خلدون كسياسى يتقلب

---

(١) يستطيع من يريد شرحا وافيا لمقدمة ابن خلدون ونظرياته الفلسفية والاجتماعية أن يرجع الى رسالة صديقى الدكتور طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) التى نقلتها الى العربية .

(٢) المقدمة — ص ١٢ و ١٤ و ١٦ و ١٧ .

(٣) المقدمة — ص ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

فى مختلف الدول والقصور تجعله يخضع أحيانا لمؤثرات الدعوة والهوى . على أن معظم حديثه فى هذا الفصل طريف ممتع ، وكثير من مآخذه على أسلافه من الرواة والمؤرخين قوى صارم . وهو يتدرج من ذلك الى ضرورة تمحيص الوقائع والأخبار طبقا لهذا القانون الذى يتكون فى رأيه بدرس العمران أو الإجتماع البشرى على نحو ما قدمنا .

بعد هذا التمهيد النقدى المستفيض ، يحدثنا ابن خلدون عن العلم الذى ابتكر موضوعه ، فيبدأ طبقا لتقسيمه الذى أتينا عليه ، بالحديث عن العمران أو الاجتماع البشرى بصفة عامة ، ويشرح لنا طبيعة الاجتماع وضرورته وكيفية تنوعه بالنسبة للإقليم ، وتأثره بظروف الجو من الحر والبرد والاعتدال ، وأثر الهواء فى أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم ؛ ويستعرض خلال ذلك جغرافيـة العالم كما كانت تعرف فى عصره ، وهى جغرافية الأقاليم السبعة . ولسنا نلمس فى هذا الفصل كثيرا من الطرافة أو الجدّة . وفى الفصل الثانى يتناول ابن خلدون أنواع العمران البدوى ، فيحدثنا بإفاضة عن المجتمع البدوى وخواصه ويقارنه بمجتمع الحضر . وهنا إحدى النظريات الإجتماعيـة المبتكرة التى يطالعنا بها المؤرخ ، فهو يحدثنا هنا عما يسميه « العصبية » وهى عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه ، وقوامها فى نظره الاتصال برابطة النسب والقرابة وما اليهما من الروابط المماثلة . وهذه العصبية هى منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة فى المجتمع البدوى ؛ وتكون هذه الرياسة لأهل العصبيـة ؛ ومدى الحَسَب الذى تترتب عليـه العصبية فالرياسة ،

فى نظره أربعة أجيال ، وقد يمتد الى خمسة أو ستة ولكن فى حالة انحطاط وضعف . وتنهار العصبية ومن ثم الرياسة بانحلال الحسب . وتنتقل الى عشيرة أو أسرة أخرى تجتمع لها أسباب الكثرة والقوة وهكذا. وغاية العصبيه هى الملك[1] . وهنا يتحدث ابن خلدون عن خواص الملك واختلاف صوره ومداه باختلاف الأمم التى يقوم فيها ، وأثر الغلبة فى الأمم المغلوبة وكونها مولعة دائما بتقليد الغالب .

ثم يحدثنا ابن خلدون عن العرب . وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل . فالعرب فى نظره أمة وحشية ، تقوم فتوحهم على النهب والعيث ، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها ؛ وإذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب لأن طبائعهم من الرحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية للعمران ، ولأنهم أهل تخريب ونهب يخربون المبانى وينهبون الأرزاق ، ويفسدون الأعمال والصنائع ؛ وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك ، لأنهم لبداوتهم وخشونتهم أكثر شعورا بالاستقلال والحرية لا يدينون لرياسة أو نظام . وسياسة الملك تقتضى النظام والخضوع والانقياد[2] . ويستمر ابن خلدون بعد ذلك فى حملته على العرب فى مواضع أخرى من مقدمته ، فيقول لنا إن الأبنية التى يختطها

---

(١) راجع شرح ابن خلدون لنظريته فى العصبية ، وخواصها ، وتطورها فى المقدمة ص ١٠٨ — ١١٧ .

(٢) المقدمة ص ١٢٥ — ١٢٨

العرب يسرع اليها الخراب، وإن العرب أبعد الناس عن الصنائع وإنهم ليسوا أهلا للعلم، و إن معظم حملة العِلْم فى الدول الاسلامية أكثرهم من الأعاجم[١]. و إذا كان ابن خلدون يعتمد فى هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة فإنه مع ذلك يبالغ فى حكمه على العرب، وتعوزه الحجة فى كثير من آرائه. ولا يتسع المقام هنا لمناقشته وتفنيد آرائه بإفاضة. ولكنا نقول فقط فى شأن الفتوحات العربية، إن العرب هم الذين افتتحوا وهاد الشام ومفاوز الأناضول وأرمينية وتوغلوا فيما و راء فارس، واقتحموا شمال إفريقية حتى المغرب الأقصى ثم اسبانيا، وعبروا جبال البرنيه إلى فرنسا. وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التى يسهل غزوها. وقد افتتحها العرب جميعا فى أقل من قرن، وفى وابل من الظفر الباهر. ثم إن العرب لم يخربوا هذه الأقطار، ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولا ومجتمعات عامرة زاهرة؛ و يكفى لكى ندحض نظرية ابن خلدون فى خواص الفتوح العربية أن نستشهد بقيام الدولة الاموية فى المشرق، ثم قيام الدولة الإسلامية فى اسبانيا. وقد نفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب بمثل هذه الشدة إذا ذكرنا أنه رغم انتسابه إلى أصل عربى ينتمى فى الواقع الى ذلك الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض أن يندمج أخيرا فى الكتلة الإسلامية، وأن يخضع راغما لرياسة العرب فى إفريقية

---

(١) المقدمة ص ٣٠٠ و ٣٣٧ و ٤٧٧

واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه . والخصومة بين العرب والبربر فى إفريقية واسبانيا شهيرة فى التاريخ الاسلامى ، وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع فى هذا المجتمع البربرى يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ، ونعمت برعاية الموحدين البرابرة وتقلبت فى نعمهم ، فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب .

بيد أنه يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ابن خلدون يجيش هنا بنزعة علمية وأخرى قومية ، فابن خلدون يحمل على العرب الذين ينتسب اليهم بمثل هذه الشدة ، ولكنه يحاول هنا أن يدعم حملته بالأدلة والشواهد التاريخية ، ويطبع حديثه هنا نزعة علمية تحررت من أغلال التقاليد الموروثة . ثم هو يجيش هنا أيضا بعاطفة وطنية قوية ، فهو ينطق هنا بلسان ذلك الوطن البربرى الذى غزاه العرب واثخنوا فيه مدى أحقاب وبسطوا عليهم سلطانهم الدينى والسياسى ، ولبث عصورا يقاتل فى سبيل حرياته واستقلاله .

وفى الفصل الثالث يحدثنا ابن خلدون عن الدولة والمُلْك . فالدولة تحدث بالقبيل والعصبية على نحو ما تقدم ، وللدولة خواص معينة ، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها ، وللدعوة الدينية أثر فى تقوية الدولة ولكن الدعوة الدينية لا تتم إلا بالعصبية أيضا . والخلاف يوهن الدولة ويدنى أجلها . وللملك كما للدولة طبائع وخواص ، منها الانفراد بالمجد ، والترف والدعة والسكون وهى خواص إذا استحكمت ، فانها تحمل الدولة الى الهرم ثم الفناء . ثم

إن للدولة أعمار طبيعية كالأشخاص ، ويقدر ابن خلدون عمر الدولة منذ نشأتها حتى الفتوة ثم الكهولة فالهرم والسقوط بثلاثة أجيال فى الغالب ، ويقدر الجيل بأربعين عاما ، فعمر الدولة لا يعدو فى الغالب مائة وعشرين سنة إلا فى أحوال نادرة[1] وهذه النظرية تتفق مع نظرية الحسب التى تقدمت عند ذكر العصبية . وهنا يبلغ ابن خلدون ذروة الابتكار والطرافة وتبدو نظرياته الإجتماعية وتحليله للمجتمع ، فى منتهى القوة والروعة . وفى رأينا أن هذا الفصل هو أبدع أقسام المقدمة وأمتنها فى العرض والتدليل ، وأسطعها فى الدلالة على براعة هذا الذهن القوى الممتاز .

ويستمر ابن خلدون فى موضوع الدولة والمُلْك طويلا ، فيتناول بعد ذلك تحول الدولة من البداوة الى الحضارة ، وأطوارها المختلفة ، وأثر الموالى والمصطنعين فى هذا التطور . ثم يتناول الملك وأصنافه والإمامه والخلافة واختلاف الآراء فى شأنهما ، ومذاهب الشيعة ؛ ثم عن تحول الخلافة الى الملك ورسوم الخلافة من بيعه وولاية عهد وغيرهما ، وألقابها وخططها الدينية وهى القضاء والعدالة والسكة ، ثم عن المُلْك وخططه كالوزارة ودواوين الأعمال والجباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل ؛ ورسوم الملك وشاراته المختلفة ، والحروب ومذاهبها ، والجباية والمكوس ونظم التجارة ؛ ويختتم ابن خلدون هذا الفصل بالكلام عن الظلم ، وكونه يؤدى الى انحلال الدولة وخراب العمران وحديثه هنا أيضا قوى مبتكر .

ويلحق بموضوع الدولة حديث البلدان والأمصار ، ونشأة

---

(١) المقدمة — ص ١٤٢ و ١٤٣

المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها، من خصب ورفاهة وجدب وفقر، وهو اختـلاف يتعدى أثره الى الأقطار التى تضم هـذه المدن، ثم موقف أهـل البادية من المصر، وتوقف مدى الحضارة فى المصر على حالة الدولة، وكون الحضارة هى غاية العمران ونهاية عمـره، وأنها مؤذنة بفساده؛ وتفاوت الأمصار فى الغـلة والصنائع واللغة، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من المقدمة.

وفى الفصل الخامس يتحدث ابن خلدون عن المعاش ووجوه الرزق ووسائل اكتساب الثروة، ثم عن التجارة وما يتعلق بهـا من العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها، ثم عن الصناعات وأنواعها وأحوالهـا بصفة عامة، ثم يفرد لكل واحدة من أمهاتها كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب فصلا خاصا.

ويخصص ابن خلدون الفصـل السادس للكلام عن العلوم والتعليم. والعـلم من طبائع العمران، ويكثر ويزدهر حيث يعظم العمران؛ ثم يتحدث عن أنواع العلوم الدينيـة والمدنية (الوضعية والعقلية)؛ ويتخلل ذلك فصول طويلة شائقة عن الرؤيا والسحر وأسرار الحـروف والكيمياء والانفعال الروحانى والأسرار الخفيـة والاستدلال على الضمائر، وهى جميعا عنده من أنواع العلوم أو مما يلحق بها. ثم يحمل على الفلسفة والمشتغلين بها باعتبارها علما باطلا، وينوه بخطرها على الدين والعقيدة، ويناقش بعض الأصول الفلسفية ويفندها. ويحدثنا بعـد ذلك عن التربيـة ومذاهبها وخواص العلماء وكون معظمهم فى الإسلام من الأعاجم؛ ويختتم بفصول عن علوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره.

الفصل الثانى

علم السياسة والملك قبل ابن خلدون

ابن خلدون مبتكر علم العمران . علم السياسة والملك قبل ابن خلدون . كتاب السلطان لابن قتيبة . نظريات الفارابى الاجتماعية . حديث إخوان الصفا عن السياسة وأقسامها . ماذا أفاد ابن خلدون من ذلك . تطور علم السياسة . الأحكام السلطانية وسياسة الملك لأبى الحسن الماوردى . سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى . حديث ابن خلدون عن كتاب الطرطوشى . رسالة الغزالى فى السياسة الملكية . المنهج المسلوك . الآداب السلطانية لابن الطقطقى . موضوعه وروحه النقدى . ابتكار ابن خلدون وطرافته

هذه هى محتويات تلك المقدمة الشهيرة التى يعالج فيها ابن خلدون علمه الجديد « العمران » ويمهد بها لقراءة التاريخ وفهمه . وهذه المقدمة هى الكتاب الأول من تاريخه العام . ولكنها جاءت كما رأينا وحدة ضخمة مستقلة، تمتاز بروعة ابتكارها، وشاسع أفقها، وطريف موضوعاتها، وعمق مباحثها . واذا كان هذا البحث الجديد الذى يعالجه ابن خلدون بمنتهى الإفاضة والبراعة والدقة يثير منا الإعجاب والدهشة، فانه يحملنا على التساؤل فى الوقت نفسه ، ماذا كان نصيب ابن خلدون الحقيقى من ذلك الإبتكار الرائع؟ وهل كان له الفضل فى ابتداع هذا العلم، أم كان له فقط فضل التوسع والإفاضة فى دراسة سبق أن عولجت من قبل ؟ يقول لنا ابن خلدون إن علمه بكر جديد وانه ألهم اليه

الهاما[١] ، بل هو لا يكاد يعرف ما هو ذلك العلم بالضبط ؛ فما نصيب هذه الدعوى من الصحة؟ لقد حاولنا أن نستقصى مصادر ابن خلدون فيما خلفه المفكرون المسلمون قبله مما يمس موضوعه أو يقترب منه ، وأن نحقق بدرس هذه الآثار ما نقله الفيلسوف المؤرّخ من أسلافه ، فانتهينا بعد طول البحث الى أن ابن خلدون رجل موضوعه ، ومخترع علمه ، وصاحب الفضل الأوّل فى ابتكار هذا العلم الجديد الذى يسميه «بالعمران أو الاجتماع البشرى» .

نعم ان هنالك موضوعات مما يعالج ابن خلدون عولجت من قبل ، وهنالك مباحث تمس بعض موضوعات علمه ؛ ولكن هذه كما سنرى دراسات محدودة لبعض نواح ضيقة من ذلك العلم الشاسع الذى يعالجه ابن خلدون بمثل هذه الإفاضة فى سلك متماسك منتظم الروابط والشواهد ، وكل ما خلفه أسلافه فى ذلك لا يعدو لمحات ضئيلة مبعثرة هنا وهنالك لا تجمعها وحدة عامة ، ولا يمكن أن تصلح وحدها أساسا لمثل هذه الدراسة الإجتماعية الممتازة . وقد رأينا أن نستعرض هذه المباحث الأولى التى يشير ابن خلدون الى بعض منها ، حتى نرى بالمقارنة المادية الى أى حد يرتفع ذلك الذهن الفائق فى أفق الطرافة والابتكار .

لسنا نجد قبل ابن خلدون مفكرا مسلما يجعل المجتمع وتكوينه وخواصه موضوعا لدرسه وتأمله ، ولكنا نجد بعض المفكرين المسلمين يعالجون منذ القرن الثالث الهجرى موضوع السياسة والملك كأنه علم خاص أو أدب خاص ؛ وقد فُهمت السياسة

---

(١) المقدمة — ص ٣٣

فى هذا العصر بمعنى ضيق جدا ، هو شرح الخلال التى يجب أن يتمتع بها السلطان ، والعيوب التى يجب أن يبرأ منها لكى يحكم بأهلية وكفاية . وأما المُلْك فانه يعالج من ناحية الشروط التى يجب توفرها شرعا فى الإمام أو السلطان ، وما يخرجه عن أهلية الحكم ، ثم الخطط السلطانية كالوزارة والإمارة ومختلف الدواوين . وأقدم ما انتهى الينا فى هذا الموضوع ما كتبه ابن قتيبة الدينورى [1] فى كتاب « عيون الأخبار » حيث يفرد قسما خاصا عنوانه « كتاب السلطان » يتحدث فيه عن الخلال التى يجب أن يتحلى بها السلطان ، وفى رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته وما يجب عليه نحو العمال والحكام [2] . وعمدة ابن قتيبة فى حديثه ، مجموعة من الأقوال والحكم المأثورة ، ومنها كثير مما ينسب لحكماء الفرس والهنود ، فحديثه أقرب الى النصح والموعظة منه الى العرض والشرح . وفى أوائل القرن الرابع نجد فيلسوفا مسلما هو أبو نصر الفارابى [3] يمس فى مباحثه موضوع المجتمع والاجتماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث فى كتابه « مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة » عن حاجة الانسان الى الاجتماع والتعاون ، وعن نشأة القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة (السلطان) ، وما لا يناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بين أهل المدن الفاضلة والمدن الضالة ؛ ثم عن

---

(١) توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ — ٨٨٩ م .

(٢) راجع هذا الفصل فى كتاب عيون الأخبار (طبع دار الكتب) ج ١ ص ١ — ١٠٧ .

(٣) توفى الفارابى سنة ٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م .

الصناعات وأقسامها [١] كل ذلك بطريقة فلسفية موجزة جدا .
وظهرت فى أواسط القرن الرابع «رسائل إخوان الصفا» الفلسفية ،
وفيها هنا وهنالك لمحات وشذور عن بعض الموضوعات السياسية
والاجتماعية ؛ ويعتبر إخوان الصفا « السياسة » علما مستقلا
بذاته ويقسمونها الى خمسة أقسام : السياسة النبوية ، والملوكية ،
والعامية ، والخاصية ، والذاتية . والأولى تتعلق بوضع النواميس
والسنن الزكية وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآراء الخبيثة .
وأما السياسة الملوكية فهى « معرفة حفظ الشريعة على الأمة ،
وإحياء السنة فى الملة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باقامة
الحدود وإنفاذ الأحكام التى رسمها صاحب الشريعة ورد المظالم
وقمع الأعداء وكف الأشرار ونصرة الأخيار » . وأما السياسة
العامية وهى الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان
والمدن ورياسة قادة الجيوش على العساكر « فهى معرفة طبقات
المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم
وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم ... الخ» . وأما السياسة الخاصية
فهى معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته ؛ وأما
السياسة الذاتية فهى معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه [٢] .
ويتحدث أخوان الصفا فى أمكنة أخرى عن الغرض من المُلْك
وعن أنواع الرياسة ؛ وعن الإمامة وشروطها وأحكامها [٣]

---

(١) راجع كتاب المدينة الفاضلة (طبعة ليدن) ص ٥٣ و ٥٩ و ٦٧ .

(٢) رسائل اخوان الصفا (مصر) ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ .

(٣) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢٣ وج ٤ ص ٣٠ وما بعدها وص ١٨١ .

ويتحدثون عن تقسيم العلوم ويقسمونها الى ثلاثة أقسام كبيرة الرياضية، والشرعية الوضعية، والفلسفية الحقيقية؛ ولكل قسم منها أنواع وفروع كثيرة، وتدخل الآداب بأنواعها فى القسم الأول؛ وعلوم الدين والقرآن والسنة فى القسم الثانى؛ والمنطقيات والطبيعيات والالهيات فى الثالث. وتوضع السياسة فى باب «الالهيات» [1]. كذلك يتحدث اخوان الصفا عن تقسيم الصنائع وما تحتاج اليه من العناصر [2]، ويتحدثون عن «تأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق» فى فصل خاص [3]. كل ذلك فى أسلوب علمى فلسفى رائع البيان والتدليل.

وهنا نقف قليلا. فإنا نجد فيما تناوله الفارابى واخوان الصفا شيئا مما تناول ابن خلدون فى مقدمته. مثال ذلك حديث الفارابى عن حاجة الإنسان الى الاجتماع، وعن نشأة القرى والمدن؛ وحديث اخوان الصفا عن تقسيم العلوم، والصنائع، ثم عن تأثير طبيعة البلدان فى الأخلاق. وقد تناول ابن خلدون هذه المسائل كما بينا [4] وجعلها من موضوعات علمه. ولكنا نجد بالمقارنة أن ابن خلدون لايكاد يشترك فى هذه الموضوعات مع الفارابى واخوان

---

(١) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢١١

(٣) رسائل اخوان الصفا — ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٥.

(٤) راجع المقدمة: فى ضرورة الاجتماع الانسانى (ص ٣٤)، وفى قيام المدن والأمصار (ص ٢٨٦ وما بعدها) وفى تقسيم العلوم (ص ٣٥٨ وما بعدها)، وتقسيم الصنائع (ص ٣١٨ وما بعدها)؛ وفى تأثير الهواء فى اخلاق البشر (ص ٧٢ — ٧٣).

الصفا بأكثر من رؤوسها؛ وبينما يتناولهـا الفارابى واخوان الصفا بطريقة فلسفية علمية محضة إذا بابن خلدون يتناولهـا من الناحية الإجتماعية ، ويفيض فى عرضها بطريقة عمليـة محضة ويذهب فى الشرح والتدليل مذهبا آخر؛ فهو لايخلو هنا أيضا من الاستقلال والطرافة والابتكار .

ثم نجد ذلك البحث الذى اصطُلح على تسميته « بالسياسة » يتخـذ مكانه وينتظم الى أدب خاص ، ويعالج تارة من النـاحية الفقهية المحضة ، وتارة من الناحيـة الأخلاقية والفلسفية . ومن أشهر الكتب التى تعنى بجانبه الفقهى، كتاب الأحكام السلطانية لأبى الحسن المـاوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)؛ وهو من أشهر وأقيم الكتب فى هـذا الموضوع . وفيـه يتحدث المؤلف بإفاضة عن الإمامة وشروطها، والإمام وما يجب أن يتوفر فيه من الصفات ، وما يخرج به عن الإمامة، وما يجب على الامة نحوه؛ ثم عن الوزارة وأنواعها والإمارة وأنواعها والقضـاء وشروطه ، والفىء والغنيمـة والجزية والخـراج وأحكامها ، والإقطـاع ، والدواوين، والحدود . كل ذلك من الناحية الفقهية وعلى المذهب الشافعى . وللمـاوردى أيضا رسالة أخرى عن « الوزارة وسياسة الملك » يتحدث فيها بإفاضة عن الوزارة ومايجب أن يتوفر فى متوليها ، ثم عن الوزير واختصاصه وواجباته وحقوقه نحو السلطان، وحقوق السـلطان نحوه وأنواع الوزارات، وعلائق الوزير والسـلطان . وبحث الماوردى هنا أخلاقى فلسفى تتخلله الحكم والأقوال المأثورة.

وفى كتاب « سراج المـلوك » لأبى بكر الطرطوشى الأندلسى

المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) يتقدم البحث قليلا . ويعالج الطرطوشى موضوعه من الناحية الأخلاقية والفلسفية، ويتناول بعض موضوعات لم يتناولها أسلافه فيحدثنا عن الخصال الواجبة فى السلطان، والصفات التى تؤدى الى ضياع الملك، ثم عن خلال السلطان منفردة، وعيوبه منفردة؛ ويتكلم بعد ذلك عما يجب أن يتصف به السلطان نحو الجند والرعية، وما يجب عليه نحو الأموال العامة وإنفاقها؛ ثم عن الجزية وشروط العمال، وعن الدواوين، وعن الظلم وسوء عواقبه، ثم عن الحروب وتدبيرها وأحكامها . وكتاب الطرطوشى هو أكبر مؤلف من نوعه؛ ولكن الصبغة الدينية تغلب على أسلوبه، ويتخذ على الأغلب صورة الوعظ، وتخلله الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة بكثرة . ويقول لنا الطرطوشى فى ديباجته « إن كتابه لم يسبق الى مثله أقلام العلماء » . على اننا نرى مما تقدم ان غير واحد من كتاب المشرق قد سبق الطرطوشى الى موضوعه، وإن كان الطرطوشى يمتاز بالإفاضة وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

ويخص ابن خلدون كتاب الطرطوشى بالذكر بين الكتب التى تمس موضوعه لأنه يحدثنا عن تلك الكتب، فيقول لنا إن فى كتاب السياسة المنسوب لأرسطو جزء صالح من موضوع علمه إلا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من البراهين . وكذا فى كلام ابن المقفع، وما يستطرد فى رسائله من ذكر السياسات، الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنا، وإنما يسلك فى ذكرها منحى الخطابة والترسل . ولكنه يصارحنا بأن الطرطوشى « قد

حوم فى كتاب سراج الملوك و بو به على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله ... لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، انما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ... وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده »[١] . والواقع أن ابن خلدون يعالج بعض الموضوعات التى يعالجها الطرطوشى ، مثل الدواوين، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ؛ ولكنه ينحو فى العرض والتدليل منحى آخر؛ ولا نلمس فى كتاب الطرطوشى أثر ذلك المذهب الإجتماعى المبتكر الذى يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه الى منتهاه .

ولدينا رسالتان أخريان فى هذا الموضوع، أعنى موضوع السياسة الملكية هما « التبر المسبوك فى نصائح الملوك » المنسوب للامام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م) وضعه بالفارسية للسلطان محمد بن ملك شاه، وهو مجموعة نصائح فى الخلال التى يجب أن يتحلى بها السلطان، ومعظمه مواعظ وقصص قديمة[٢] ؛ «والمنهج المسلوك فى سياسة الملوك» ، كتبه عبد الرحمن ابن عبد الله للسلطان صلاح الدين الأيوبى (أواخر القرن السادس) فى نفس الموضوع، أعنى الخلال السلطانية، وفيه أيضا حديث فقهى عن القتال والفىء والغنيمة؛ ومواعظ وقصص قديمة مكررة .

بقى لدينا من هذا الثبت مؤلف يمتاز بشيء من التوسع فى فهم

---

(١) المقدمة ص ٣٣

(٢) طبعت هذه الرسالة على هامش كتاب «سراج الملوك» (مصر) .

الموضوع وشيئ من الطرافة فى عرضه، ذلك هو كتاب «الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية» لمؤلفه محمـد بن على بن طباطبا المعروف بالطِّقْطَقى، الذى عاش، كما يستنتج من إشارات فى كتابه ، فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجرى بعد ذهاب الدولة العباسـية ، وكتب مؤلفه فى أواخر سـنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢م) بمدينة الموصل لأميرها عيسى بن ابراهيم[١]، و يخصص ابن الطقطق فى كتابه فصلا كبيرا «للأمور السلطانية والسياسات الملكية»[٢] غير أنه يعرض موضوعه فى صورة أخرى، و يقول لنا فى مقدمته إنه لا يقصد البحث فى أصل الملك وحقيقته وانقسامه الى رياسات دينية ودنياوية من خلافة وسلطنة و إمارة و ولاية، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن، ومذاهب أصحاب الآراء فى الامامة، و إنمـا يقصد البحث فى موضوع «السياسات والآداب التى ينتفع بهـا فى الحوادث الواقعة، والوقائع الحادثة، وفى سياسـة الرعية وتحصين المملكة وفى إصـلاح الإخلاق والسيرة»[٣] . و يتحدث ابن الطقطق فى هذا الفصل عمـا يجب أن يكون عليـه الملك الفاضل من الخصال وما لا يجب، ثم عن حقوق الملك على الرعيـة، وأخصها الطاعة . و يحدثنا طو يلا عن مزايا الطاعة وخواصها فى الدولتين الأموية والعباسـية ، وكيف

---

(١) راجع مقدمة المؤلف فى طبعة «جريفزولد» التى نشرها المستشرق آلفارت سنة ١٨٥٨ ؛ و راجع أيضا مقدمة الناشر الألمـانية (ص ١٤ و ١٥) .

(٢) الفخرى — ص ١٩ — ٨٨

(٣) الفخرى — ص ١٩

كان فقدها عاملا من أهم العوامل فى وهن الدولة العباسية وسقوطها ، ويشرح نظريتـه بالوقائع والحقائق التاريخية[1] . ثم يتحدث عن الحقوق الواجبة للرعية على الملِك وأنواع السياسات التى يجب أن يتبعها نحو مختلف الطبقات ، والنظـر فى العقوبات وتقـديرها وظروفها ، وخطر الانغماس فى الشهوات على الملك والدولة ؛ ويورد خلال ذلك شيئا من وصايا الحكماء اليونان والفرس . ولكن ابن الطقطقى لا يعنى بعرض المبـادئ والقواعد النظرية عنايتـه بتطبيقها على حوادث التاريخ ولا سيما تاريخ الدول الاسلاميـة . وهو يمتـاز فى عرضها وتطبيقها بنزعة نقـدية قوية قلمـا نلمسها فى آثار أسلافه ، كما أنه يمتاز بحسن التدليل وتطبيق النظريات على الوقائع . بل نسـتطيع أن نقول إن هذا الفصـل الذى يمهد به لتـاريخ الدول الاسلاميـة كان فتحا جديدا فى النقـد التاريخى ، وفى درس الدولة من الناحية الإجتماعية . وهو بلا ريب مما يدخل فى مواد تلك الدراسـة الإجتماعية الشاسـعة التى استخرج منهـا ابن خلدون علمه ومذهبه الإجتماعى . بيد أن ابن خلدون لم يطلع فيما يظهر على هـذا الأثر الذى يعـالج بعض نواح من موضوعه ، فقد كان الكتاب حديثا بالنسبة لعصره ، ولم يكن قد وصل تداوله وذيوعه من المشرق الى المغرب ؛ هذا الى أن الموضوع الذى يعالجه ابن الطقطقى ضيق جدا بالنسبة لدراسة ابن خلدون ؛ وإذا كان كلاهما يشترك فى فهم التاريخ بطريقة تحليلية ، فإن ابن خلدون يتفوق على سلفه تفوقا عظيما بسعة آفاقه ، وينهج فى دراسته سبيلا

---

(١) الفخرى ص ٣٥ و ٣٦

أخرى تحتفظ بكل جدّتها وطرافتها .

* * *

والآن وقد عرضنا كل ما كتبه المفكرون المسلمون فى موضوع الدولة والسياسة الملوكية والمدنية والاجتماعية قبل عصر ابن خلدون ، وبيّنا بالمقارنة المادية أن هذا التراث كله لم يكن يمد ابن خلدون أو يلهمه بموضوع علمه ، وان كان يعرض الى نواح ضئيلة مما يتناوله ابن خلدون فى دراسته ، فإنا نستطيع أن نقرر مع ابن خلدون أن ذلك العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى هو علم لم يوجد قبله فى التفكير الاسلامى ، بل لم يوجد فى التفكير القديم كله ، اذا استثنينا بعض ما خلفه الفلاسفة اليونان ولا سيما أرسطو عن نظم الدولة والمجتمع . فاذا كان ابن خلدون قد انتفع بشىء من تراث الماضى ، فانما يكون من هذا التراث الغابر ، ولأ سيما تراث أرسطو ؛ وقد كان ابن خلدون فيما يظهر مطلعا على بعض جوانب من فلسفة أرسطو ، كما يبدو من إشارته الى « سياسة » أرسطو ، وعلى شروح ابن رشد لأرسطو[1] . على أنه لا ريب فى أن هذا الانتفاع لم يكن ذا شأن يذكر سواء فى صوغ فلسفته التاريخية أو فلسفته الاجتماعية .

فابن خلدون اذاً ، كما قدمنا أستاذ موضوعه ، ومخترع علمه . وهو يقول لنا بحق إن علمه جديد مبتكر ، وانه ليس من علم السياسة المدنيـة الذى تناوله أسلافه من قبل ، بل هو علم مستنبط النشأة

---

(١) راجع المقدمة — ص ٣٣ . وقد وضع ابن خلدون كما سنرى ملخصات لبعض كتب ابن رشد ، ولكنها لم تصل الينا .

مستقل بذاته، لم يعالجه مفكر قبله، أو لم يعالجه بمثل ابتكاره وسعته واستيعابه .

وسنرى أن هذا العلم الذى استحدثه ابن خلدون واستنبطه، يتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانه بين علومنا الحديثة، فى علوم الإجتماع، وفلسفة التاريخ، والنظام، والاقتصاد السياسى .

وسنبين فى موضع آخر، كيف يرتفع النقد الحديث بتراث ابن خلدون الإجتماعى الى أسمى مكانة ، ويعتبره مبتكر علم الإجتماع الحديث وواضع أسسه .

الفصل الثالث

كتاب العبر والتعريف

مؤلف ابن خلدون التاريخى . وكرته الأصلية فى الاقتصار على تاريخ المغرب . تنقيحه لتاريخه وزيادته فى محتوياته . مدحه لخلال البربر . طريقته وأسلوبه . كتاب التعريف أو ترجمة ابن خلدون لنفسه . محتويات التعريف . صراحة ابن خلدون فى الكشف عن كثير من نزعاته . خلاله القوية . الجانب القصصى فى تعريفه . هل لابن خلدون آثار أخرى

— ١ —

ان هذا الكتاب الأول، الذى يعرض فيه ابن خلدون نظرياته فى التاريخ والاجتماع، والذى يشغل وحده مجلدا كبيرا ، ليس إلا مقدّمة لمؤلفه التاريخى الضخم أو تاريخه العام .

ويسمى ابن خلدون مؤلفه التاريخى : « كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ويقسمه الى ثلاثة كتب كبيرة على النحو الآتى :

الأول — فى العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب . وهذا الكتاب هو الذى عرضنا اليه فيما تقدّم ، وهو المعروف بالمقدّمة .

الثانى — فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة الى هـذا العهد وفيه الإلمـاع ببعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى اسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والإفرنجة .

الثالث — فى أخبار البربر ومن اليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

ويقع مؤلف ابن خلدون فى سـبعة مجلدات ضخمة ؛ الأوّل يشـمل الكتاب الأوّل ، وهو علم العمران ؛ أو المقدّمة ؛ وتبدأ الموسوعة التاريخية منذ المجلد الثانى . ويسـتغرق الكتاب الثـانى وهو أخبـار العرب وأجيالهم ، وأخبـار باقى الأمم القديمة والتركية والفرنجية حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أربعة مجلدات ، من الثـانى الى الخامس ؛ ويشـمل الكتاب الثالث ، وهو أخبـار البربر حتى عصر المؤلف المجلدين السادس والسابع ؛ ويختتم ابن خلدون مؤلفه بالتعريف عن نفسـه فى عدّة فصـول كبيرة كما نفصل بعد .

ويبدأ ابن خلدون كمعظم المؤرخين المسـلمين بالحديث عن أصل الخليقة وأنساب الأمم المختلفة . وحديثه فى ذلك معاد جله من الروايات والأساطير الدينية القـديمة التى ترددها التواريخ الإسلامية نقلا عن التوراة وعن هيرودتوس (هرشيوش) بيد أنه يبدى ريبه فى صحة الكثير منها . ويشرح لنا ابن خلدون بعد ذلك برنامج تاريخه كاملا[1] ؛ ويبدأ بالكلام عن العرب الجاهليـة ،

(١) كتاب العبر — ج ٢ ص ١٦ و ١٧ .

ثم اليهود واليونان والرومان والفرس . وينقل معظم روايته عن اليونان والرومان عن ابن العميد .

ويشغل حديثه عن ظهور الإسلام وحياة النبي وعصر الخلفاء الراشدين جزءا خاصا ألحقه بالمجلد الثانى . ثم يبدأ تاريخ الدول الإسلامية منذ المجلد الثالث ، فيتحدث عن الدولة الأموية ، ثم الدولة العباسية بإفاضة . ويشغل تاريخ الدولتين المجلد الثالث . ويشمل المجلد الرابع تاريخ الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس منذ الفتح حتى مبدأ دولة بنى الأحمر ، وتاريخ بنى بويه وبنى سبكتكين . ويشمل المجلد الخامس تاريخ الترك السلاجقة بإفاضة ثم تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ دول المماليك فى مصر حتى أواخر القرن الثامن . ويعتمد ابن خلدون فى هذا القسم أعنى تاريخ العرب والدول الاسلامية على تراث أسلافه مثل ابن هشام والواقدى والبلاذرى وابن عبد الحكم والطبرى والمسعودى وابن الأثير وغيرهم . ويبدأ ابن خلدون كتابه الثالث وهو أخبار البربر فى المجلد السادس . ويذكر لنا ابن خلدون ان كتابة تاريخ البربر هى غرضه الأول من وضع مؤلفه التاريخى ، إذ يقول فى مقدّمته : « وأنا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى اما صريحا أو مندرجا فى أخباره وتلويحا ، لاختصاص قصدى فى التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعى على أحوال المشرق وأممه ، وأن الأخبار المتناقلة لا توفى كنه ما أريده منه »[1] . ولهذا التصريح من

---

(١) المقدمة ص ٢٧ .

جانب ابن خلدون قيمة خاصة ، فقد حمل بعض النقدة على تاريخه ، ورموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق فيما كتب عن المشرق . وقد أشرنا فيما تقدم الى أقوال الحافظ ابن حجر وغيره فى ذلك (١) .
والواقع ان القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر ، هو — بعد المقدّمة — أنفس أقسامه ، وأوفرها طرافة ، وأقواها عرضا وتحقيقا ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن أحوال تلك الأمم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه أى مؤرخ قبل ابن خلدون أو بعده . ولا غرو فابن خلدون بطبيعة نشأته وحياته ، وتقلبه فى خدمة الدول والقصور البربرية ، ودرسه لأحوالها دراسة المطلع ، رجل هذا الموضوع وأقدر من يتناوله .

وفى هذا الكتاب الثالث يبدأ ابن خلدون حديثه عن «العرب المستعربة من بقية الدول الاسلامية من العرب» بالمغرب ، ثم تاريخ البربر والقبائل والبطون البربرية الشهيرة مثل زناته ومغراوة ولواته ومصمودة والبرانس وكتامة وصنهاجة منذ أقدم العصور حتى عصره ؛ ويقدم الينا عن أصول البربر ، وأحوالهم ، وعقائدهم قبل الفتح الاسلامى ، روايات وحقائق لم تكن معروفة من قبل . ويسرد تاريخ المرابطين والموحدين بإيجاز ؛ ثم يفيض فى تاريخ الدول البربرية القريبة من عصره والتى عاصرها إفاضة ظاهرة ؛ ولما كان ابن خلدون قد اتصل بمعظم هذه الدول المعاصرة ، وأدى فى تقلباتها ، أدوارا ، فانه يشير فى كثير من المواطن الى مواقفه

(١) راجع ص ٩٣ من هذا الكتاب .

وأعماله فيها[١] . ويشغل تاريخ البربر المجلد السادس ومعظم المجلد السابع من كتاب العبر كما انتهى الينا . بيد أنه يتضح من مراجعة أخبار الدول المعاصرة، أن ابن خلدون، قد راجع ما كتبه فى شأنها وزاد عليه فيما بعد فى كثير من المواطن . ونحن نعرف أن ابن خلدون قد أتم كتابة النسخة الأولى من تاريخه فى تونس سنة ٧٨٣ هـ قبل نزوحه الى مصر . وهو يقول لنا خلال حديثه عن أخبار بنى حفص ما يأتى : «كنت قد أنهيت بتأليف الكتاب الى ارتجاع توزر من أيدى ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس، ثم ركبت البحر فى منتصف أربع وثمانين الى بلاد المشرق لقضاء الفرض، ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر، ثم صارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين ...»[٢] وقد وقع ارتجاع توزر سنة ٧٨٣هـ[٣] . وفى مصر تناول ابن خلدون تاريخه بالتهذيب والإضافة، ووصل فى روايته فى أخبار الدول البربرية الى سنى ٧٩٠ و٧٩١ و ٧٩٢ وأحيانا الى سنة ٧٩٦هـ[٤] . ووصل فى أخبار الدول المصرية والتركية حتى سنى ٧٩٣ و ٧٩٥ و ٧٩٦ و ٧٩٧هـ[٥] . ووصل فى أخبار الأندلس حتى سنة ٧٩٤هـ[٦] .

---

(١) مثال ذلك ما ورد فى ص ٣٧٧ و ٣٧٩ من المجلد السادس وفى ص ١٣٣ و١٤٣ و ٣٠٥ و ٣٢٩ و ٣٣٤ و ٣٧٧ من المجلد السابع .

(٢) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٦

(٣) كتاب العبر — ج ٦ ص ٣٩٥

(٤) راجع ج ٦ ص ٣٩٩ و ٤٠٣ و ٤٢٤ — وج ٧ ص ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ٢١٨ و ٢١٩

(٥) راجع ج ٥ ص ٥٤٠ — ٥٥٠ وص ٥٦١ و ٥٦٣

(٦) راجع ج ٤ ص ١٧٩

وهـذه كلها إضافات وفصول جديدة أضيفت الى المؤلف الأصلى أثناء إقامة المؤرخ بمصر، والنسخة التى انتهت الينا، والتى نتداولها الآن، هى بلا ريب من أتم النسخ وأوفاها .

ونلاحظ فى هذا القسم أيضا — تاريخ البربر — أن ابن خلدون يفرد فصلا خاصا للتكلم عن خلال البربر « وعمـا كان لهم قديما وحديثا من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » وهو يقول لنـا بحماسة « وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم فى الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومراعاة المـدح والثناء من الخلق، من عز الجوار وحماية النزيل ورعى الأذمـة والوفاء بالقول والعهـد والصبر على المكارة والثبات فى الشـدائد ... وإباية الضيم ومشاقـة الدول، ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيـع النفوس من الله فى نصر دينـه، فلهـم فى ذلك آثار نقلهـا الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منهـا ما يكون أسـوة لمتبعيه من الأمم »(١) ولم يعقـد ابن خلدون مثل هـذا الفصل للتحدث عن خلال أية أمة من الأمم الأخرى، فهـو هنا ينم عن هوى خاص ونعرة بربرية واضحـة؛ وفى ذلك أيضا ما يفسر لنا صرامته فى الحملة العرب غزاة إفريقية والمتغلبين عليهـا .

على أنه توجد أقسام أخرى من مؤلف ابن خلدون غير تاريخ البربر تمتاز بقيمة خاصة . مثال ذلك روايته عن دولة الإسلام فى صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس، والممـالك النصرانية فى اسبانيا،

(١) راجع ج ٦ ص ١٠٣ وما بعدها .

وتاريخ دولة بنى الأحمر فى غرناطة . وينوه العلامة دوزى بقيمة رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى فى اسبانيا ويقول إنه لا يوجد فى الآداب النصرانية فى العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها ، وان مؤرخا نصرانيا لم يوفق لكتابة رواية فى مثل وضوحها ودقتها عن أية دولة مسلمة »(١) ويتفوق ابن خلدون فى هذه الأقسام من تاريخه على المؤرخين المسلمين تفوقا عظيما من حيث الدقة والتحقيق وتمحيص الرواية ؛ ويرجع ذلك فى الغالب الى أنه اطلع على مصادر فى عصره لم تصل الينا . وقد اهتم البحث الحديث برواية ابن خلدون عن تاريخ البربر اهتماما عظيما كما اهتم بمعظم هذه الأقسام الأخرى من تاريخه ، فترجمت جميعا الى اللغات الأوربية كما سنبين بعد .

ويختتم ابن خلدون كتابه بعدة فصول كتبها فى التعريف بنفسه وسرد تاريخ حياته منذ نشأته حتى نزوحه الى مصر ، وما توالى عليه بها من الحوادث حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ . وتعرف هذه الفصول « بالتعريف » أو التعريف بابن خلدون ؛ وسنعود اليها فيما بعد .



وقد نهج ابن خلدون فى تنظيم مؤلفه منهجا جديدا ، فقسمه الى كتب ، ثم الى فصول متصلة متداخلة ، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية الى النهاية مع مراعاة نقط الوصل والتدخل

---

(١) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature d'Espagne au moyen âge, p. 96.

بين مختلف الدول . وهو من هذه الناحية يتفوق على أسلافه تفوقا كبيرا . وقد وضعت معظم الموسوعات التاريخية الاسلامية قبل عصره فى صورة جداول تاريخيـة مرتبة وفق السنين ، وجمعت حوادث كل سنة رغم تباعدها وتباينها معا . ولكن ابن خلدون عدل عن هذه الطريقة الى طريقة الفصول والدول المتصلة ، وهى أقرب الى الدقـة وحسن الرواية والتنسيق . وهو ليس أول من ابتدعها من المؤرخين المسلمين ، فقد سبقه اليها منذ القرنين الثالث والرابع مؤرخون كالواقدى ، والبـلاذرى ، وابن عبـد الحكم المصرى والمسعودى ، دونوا التاريخ فصولا متصلة [١] . ولكنه يمتاز عن أسلافه ببراعة التنظيم والربط والسبك ، ثم يمتاز عنهم أيضا بالوضوح والدقة فى تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

ولابن خلدون أسلوب خاص فى العرض والتعبير . وكما أن مقدمتـه تمتاز بطرافة موضوعاتها فهى أيضا تمتاز بروعة أسلوبها الأدبى الذى يجمع بين البساطة وقوة التعبير ، ودقة التدليل ، وحسن الأداء والتنـاسق . وإذا كانت المقدمة مثلا أعلى للتفكير الناضج والابتكار الفائق ، فهى فى نظرنا أيضـا مثل أعلى لحسن البيان والفصـاحة المرسلة والعرض الشائق ، وذلك رغم مايطرأ أحيانا على أسلوبها من ضعف فى العبارة ، وغرابة فى التعبير ، وشذوذ فى اللفظ ، ترجع إلى نشأة ابن خلدون البربرية ، وتثقفه بآداب

(١) الواقدى فى كتاب « فتوح مصر والشام » المنسوب اليـه ، والبـلاذرى فى « فتوح البـلدان » وابن عبد الحكم فى « فتوح مصر واخبارها » والمسعودى فى «مروج الذهب» .

المغرب والأندلس ، ولم تكن يومئذ فى أوج قوتها .

ويكتب ابن خلدون تاريخه بنفس الأسلوب القوى المرسل ؛ وفى أحيان كثيرة يرتفع إلى ذروة القوة فى التعبير ، ولكنه فى أحيان كثيرة يبالغ فى الإيجاز والإتباع ، فتبدو عبارته قاصرة عن بيان مقاصده و يعتورها الغموض واللبس ، أو يعتورها نوع من الركاكة والضعف ، وتتخللها الألفاظ الغريبة . غير أنه دائما أستاذ موضوعه ، يمتاز دائما بالبيان القوى الشائق .

— ٢ —

ترك ابن خلدون سيرة حياته مكتوبة بقلمه . وليس ابن خلدون أول من ترجم نفسه من الكتاب والمفكرين المسلمين . فكثير منهم ترجم نفسه ولا سيما المحدثين . ومن الأدباء والمؤرخين الذين ترجموا أنفسهم ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » ولسان الدين بن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ومعاصره الحافظ ابن حجر فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » والسيوطى فى كتابه «حسن المحاضرة» . ولكن هؤلاء جميعا يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة . أما ابن خلدون فهو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة مستفيضة تشغل كتابا بأسره ، ويحدثنا بصراحة عن كثير من أعماله وأحواله التى لا يحسن الحديث عنها . وابن خلدون يعتبر بحق نفسه شخصية من شخصيات التاريخ تستحق سيرتها التدوين والترجمة ؛ فقد لبث نحو ثلث قرن شخصية بارزة فى الدول المغربية المعاصرة ، يؤثر بأعماله ونفوذه فى تطوراتها ومصايرها ، فتاريخه فى الواقع قطعة من

تاريخ هذه الدول لايمكن إغفالها .

كتب ابن خلدون إذًا ترجمة نفسه فى عدة فصول مستفيضة وجعلها ذيلا لمؤلفه التاريخى . وتعرف هذه الفصول بالتعريف ، وهو العنوان الذى اختاره ابن خلدون لأول فصل منها وهو : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وتشغل من المجلد السابع من تاريخه نحو مائة صفحة من القطع الكبير[1] . ويحدثنا ابن خلدون فى « التعريف » عن نسبه وتاريخ أسرته مذ قدمت إلى الأندلس واستقرت فى إشبيلية حتى نزوحها إلى المغرب وماساهم به زعماؤها فى حوادث الأندلس ، وما انتهوا اليه من رفيع المناصب والنفوذ حتى أيام الطوائف . ثم يحدثنا عن نشأته وتربيته الأولى وما قرأ ودرس من الكتب والعلوم ، وعن شيوخه الذين تلقى عنهم ، ويترجم لنا كثيرا منهم . ثم يتناول سيرة حياته العامة ، مذ ولى توقيع العلامة لأبى اسحاق سلطان تونس سنة ٧٥٢ ه ، ويحدثنا بإفاضه عن اتصاله بأمراء المغرب ودوله ، وتقلبه فى قصور تونس وبجايه وتلمسان وفاس ، وعما انتهى اليه من النفوذ فى هذه القصور والدول وهو فتى فى عنفوانه لم يجاوز الثلاثين ، وعما أصابه مرارا من محن الإعتقال والتشريد ، ثم عن رحلته إلى الأندلس واتصاله بملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، وسفارته إلى ملك قشتاله وزيارته لإشبيلية موطن أسرته الأول ، وكيف نشب الجفاء بينه وبين ابن الخطيب وملك غرناطة ، فارتد الى المغرب يتقلب فى خدمة أمرائه ودوله حتى انتهى كرة أخرى إلى بلاط تونس فاستقر فيه ، ثم لزم

(١) كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٧٩ — ٤٦٢ .

العزلة حينا وعكف على كتابة مؤلفه حتى أتمه ، ورأى أخيرا أن يختتم حياة المغامرة السياسية فى تلك القصور المضطربة فغادر تونس إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ .

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عن حياته فى مصر واتصاله بالسلطان ، وولايته التدريس وقضاء المالكية ، وما كان من سعاية خصومه فى حقه حتى عزل عن منصب القضاء ، ثم سفره لقضاء الحج وعوده الى مصر لينقطع للتدريس والقراءة ، وليرتد حينا الى حياة الدعة والعزلة حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

وهنا يختتم ابن خلدون فصول «التعريف» بنفسه فى النسخة المتداولة التى انتهت الينا . ولكن دار الكتب المصرية تحتفظ بنسخة مستقلة من « التعريف » أتم وأوفى عنوانها "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا" وفى نهايتها أنها نقلت عن نسخة المؤلف الأصليه (١) . وفى هذه النسخة عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر ، يحدثنا فيها بإفاضة عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء ، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب ، وعن حوادث مصر الداخلية يومئذ ، ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج ، ولقائه ملك التتار تيمورلنك تحت أسوار دمشق ، وما دار بينهما من الأحاديث ، وما وقع فى تلك الفترة من حوادث الفتح التترى ؛ يتخلل ذلك كله شروح وتعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدمة . ثم يحدثنا بعد ذلك عن عوده

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب تحت رقم (١٠٩ م تاريخ) .

الى مصر وعوده الى ولاية القضاء مرارا وتكرارا، وما لقى فى ذلك من كيد خصومه وسعايتهم . و يصل ابن خلدون فى رواية هـذه الحوادث حتى ختام سنة ٨٠٧هـ اعنى قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط، وتشغل هـذه الفصول فى النسخة الخطية المشار اليها نحو أربعين صفحة كبيرة[1] . وتقع النسخة كلها فى مائة وتسع وأربعين صفحة. وفى القسم الأول منها الذى يقابل نسخة التعريف المتداولة زيادات وإضافات كثيرة مما يدل على أن ابن خلدون عاد أثناء مقامه فى مصر فتناول ترجمة حياته بشئ من التنقيح والتهذيب .

وهذا « التعريف » الذى يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته، قطعه فريدة فى الأدب العربى؛ فهو صورة قوية ممتعة لتلك الشخصية الممتازه الجريئة ، رسمت فى كثير من الحرية والصراحة حتى انها لتفصح فى كثير من المواطن عن خواص صاحبها النفسية، وليست هـذه الخواص دائما مما يحمد أو مما تقر الأخلاق الفاضلة . فهنالك الكبرياء ، والزهو ، والأثرة ؛ وهنالك الطمع وحب التقلب ، وشغف الدس، وانتهاز الفرص بأى الوسائل؛ ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة؛ هذه كلها نلمحها من آن الى آخر ماثلة فى أعمال المؤرخ ومواقفـه حسبما يقصها علينا بنفسه . ولكن

---

(١) تشغل هـذه الفصول فى النسخة الخطية من ص ١٠٧ الى ص ١٤٩ . وهذا بيانها كما أوردها ابن خلدون : ولاية الدروس والخوانق . ولاية خانقاه بيبرس والعزل منها . فتنة الناصرى . السعاية فى المهاداة والإلحاق بين ملوك المغرب والملك الظاهر . سفر السلطان الى الشام لمدافعة الظظر (التتار) عن بلاده . لقاء الأمير تمر (تيمور) سلطان المغل والظظر .

هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيرا عن خواص الشخصية الممتازة، بل هي في الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هي بعبارة أخرى مقومات السياسة «المكيافيلية» التي تتبوأ مكانتها بين مذاهب السياسة الحديثة. ثم هي تقرن في الوقت نفسه بكثير من خواص العبقرية ومميزاتها؛ فهنالك الى جانبها، نرى الجرأة والإقدام وقوة النفس والثبات والجلد، ونرى وفرة الذكاء والدهاء وبعد النظر، ونرى قوة التأثير والإقناع، ونرى الفصاحة والبيان الساحر؛ هذه الخلال البديعة كلها أيضا مما نستشف ونشهد في أعمال ابن خلدون ومواقفه . وفي هذا وذاك يحدثنا المؤرخ بصراحة وحرية وبساطة تحمل على الإعجاب .

ثم هنالك الجانب القصصي الشائق . وتلك الغمار الخطرة التي تتخلل حياة المؤرخ ، ليست مما يقع في حياة الرجل العادي . فهو يجوز من قصر إلى قصر ، ويجوز مخاطر النقمة والاعتقال والمطاردة، ويقضي حياته السياسية في توجس مستمر؛ ويسير في ركب الجند ويمثل الى جانب أميره في المعارك الحربية، ويقوم بقضاء المهام الخطرة في أعماق الهضاب والصحاري . ونراه في دمشق في السبعين من عمره يخوض مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ويقصد الى معسكر الفاتح في جرأة؛ ونراه في مصر يقارع خصومه ويغالبهم رغم انفراده وكثرتهم، ويفوز عليهم في ميدان النضال أكثر من مرة . أليست لهذه الحياة العنيفة الشائقة روعتها وسحرها ؟ إنا لنذكر حين نقرأ « تعريف

ابن خلدون» تلك الترجمة الشهيرة التى تركها لنا بنفونوتو تشللينى[(١)] عن حياته الغريبة . فهنالك شبه عظيم بين السيرتين رغم اختلافهما فى النوع ، وكلتاهما تفيض بمواطن الجرأة والمخاطرة ومواطن الإفضاء والصراحة . واذا كانت ترجمة الفنان الايطالى تعتبر فى الأدب الغربى ، نموذجا بديعا للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فإن «تعريف» ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة فى أدبنا العربى .

— ٣ —

لم يصلنا من تراث ابن خلدون سوى مؤلفه التاريخى أعنى كتاب العبر، والتعريف . ولكن ابن الخطيب يذكر لنا فى ترجمته لابن خلدون فى كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» ثبتا آخر لآثار ابن خلدون، فيقول لنا إنه «شرح البردة شرحا بديعا ، ولخص كثيرا من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييدا مفيدا فى المنطق ، ولخص محصل الامام فخر الدين الرازى . وألف كتابا فى الحساب ، وشرع فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشئ لا غاية فوقه فى الكمال »[(٢)] وقد كتب ابن الخطيب هذه الترجمة قبل أن يضع ابن خلدون مؤلفه التاريخى بأعوام كثيرة ،

---

(١) بنفونوتو تشللينى Cellini (١٥٠٠ — ١٥٧١) رسام وحفار وصائغ ايطالى شهير خاض غمار حياة غريبة فياضة بالجرأة والمخاطرة ، وترك لنا ترجمة نفسه فى مجلد ضخم . وتعتبر ترجمته من ابدع آثار عصر الاحياء .

(٢) نفح الطيب (بولاق) ص ٤١٩ — وينقل المقرى ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون كلها (ج ٤١٤ — ٤٢٦) .

ولذا لم يذكره فى هـذا الثبت . على أن شـيئا من تلك الآثار أو الرسائل لم يصلنا ، بل يظهر أنها لم تكن ذائعة معروفة فلم تذكر التراجم المصرية المعاصرة عنها شيئا ؛ والظاهر أيضا أنها لم تكن من الأهمية بمكان حتى أن ابن خلدون نفسه لا يشير اليها فى التعريف بشئ .

الفصل الرابع
ابن خلدون والنقد الحديث

أوّل عهد البحث الغربى بابن خلدون . المباحث الأولى عنه وعن مؤلفه . نشر المقدّمة وترجمتها . ظهور نظرياته وآرائه . رسالة فون كريمر عنه . ابن خلدون مؤرخ الحضارة الاسلامية . تعليق الاستاذ شميت على هذا الوصف . رأى دى بوير . ابن خلدون الفيلسوف . ابن خلدون الاجتماعى . تحليل العلامة جمبلوفتش لنظريات ابن خلدون الإجتماعية . فريرو وليفين . تقدير الأستاذ مونييه للقدّمة . فلسفة ابن خلدون الوضعية . تشاؤم ابن خلدون . رأى فون فيسندنك فى تطبيق نظرياته على التاريخ الحديث . ابن خلدون الاقتصادى . تحليل الأستاذ كلوزيو لنظرياته الإقتصادية . رسالة الأستاذ شميت . تقديره لابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ واجتماعى .

يرتفع النقد الغربى بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربى قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم إلى مكانته، وعرف قبله كثيرا من المؤرخين المسلمين، لا لأنهم أجدر بالبحث والتعريف، ولكن لأنهم ظهروا فى عصور الاسلام الفتية الزاهرة أو لأنهم تناولوا نواحى عنى بها التفكير الغربى[1] . ولكن ابن خلدون ظهر فى عصر

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودى وأبى الفدا وابن العبرى وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة ؛ وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبرى وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) فى انكلترا بنصهما العربى منذ منتصف القرن السابع عشر .

سرى فيه الإنحلال إلى صولة الإسلام وسيادته ، واضمحل التفكير الإسلامى ، فلم يكن أجدر العصور بالتعـريف والبحث . ولبث تراث ابن خلدون مغمورا فى الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئا عنه . وفى سـنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه فى موسوعة « دربلو » الشرقية أوّل ترجمة غربية[١]. وهى ترجمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك أكثر من قرن قبل أن يعنى التفكير الغربى بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقـدّمة فى قاموسـه Chrestomathie Arabe ثم نشر بعـد ذلك بأعوام ترجمة لمقتطفات أخرى من المقـدّمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة أوفى لابن خلدون فى قاموس التراجم العـام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدّمة ابن خلدون . وفى نفس الوقت نشر المستشرق النمسوى فون هامار رسالة بالألمـانية عن « اضمحلال الإسـلام بعد القرون الثـلاثة الأولى للهجرة »[٢] ، تعرّض فيهـا لبعض نظريات ابن خلدون فى انحلال الدول ، ووصفه بأنه «مونتسكيو العرب» . ونشر بعد ذلك ترجمة ألمـانية لبعض مقتطفات من المقدّمة ، ثم نشر وصفا لبعض أجزاء المقدّمة فى «المجلة الأسيوية»[٣] . واستمرّ دى ساسى

---

(١) D'Herbélot : Bibliothèque Orientale.

(٢) Von Hammer - Purgstall : Ueber den Verfall des Islams nach den eresten drey Jahrhunderten der Hidschrat (1812).

(٣) Journal Asiatique (1822).

وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدّمة ابن خلدون أو تاريخه، والبحث الغربى فيما بين ذلك يزداد اهتماما بابن خلدون وتراثه ، وإعجابا بقوّة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدّمة ابن خلدون كاملة بنصها العربى سنة ١٨٥٨ ،ونشر دى سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدّمة، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربى فى روعة ابتكاره ،وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذى غمره النسيان مدى عصور .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربى بابن خلدون ونظرياته الإجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافا علميا حقا، وكان أعجب مافى هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب فى تراث المفكر المسلم ، بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعيـة والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربى إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . أجل اكتشف النقد الغربى لدهشته وإعجابه فى تراث ابن خلدون كثيرا مما ردده مكيافيللى بعده بقرن، وما ردده ڤيكو ومونتسكيو،وآدم سميث، وأوجست كونت[1] بعده بقرون . وكان المعتقد أن البحث الغربى أوّل من اهتـدى الى فلسفة التاريخ، ومبادئ الاجتماع، وأصول الاقتصاد

(١) مكيافيللى مؤرخ وسياسى إيطالى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . وڤيكو مؤرخ وفيلسوف إيطالى (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعى فرنسى (١٦٦٩ - ١٧٥٥) وآدم سميث اقتصادى انكليزى (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وأوجست كونت فيلسوف فرنسى وهو واضع أصـول الفلسفة الوضـعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧) .

السياسى ، فإذا بابن خلدون يسبقه بعصور و يغزو فى مقدمته هذه الميادين و يعرض كثيرا من نواحيها ونظرياتها بقوة و براعة . ومن ثم فإنا نرى النقد الغربى ، بعد أن اكتشفه ودرسه ، يرتفع بتراثه إلى أسمى مكانة ، و ينظمه فى سلك الفلاسفة ومؤرخى الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسى ، بل و يعترف له بفضل السبق فى هذه الميادين .

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية فى تفكير ابن خلدون أول ما عنى النقد الغربى بدرسه ، ولكن الناحية الإجتماعية ما لبثت أن لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع ، وأخذت تتفوق على ماعداها من نواحى تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الإجتماعية تشغل فراغا كبيرا فى النقد المعاصر ، و يتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن .

وكان فى مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوى الكبير البارون فون كريمر ، فكتب عنه بالألمانية رسالته الشهيرة « ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية »[1] وقدمها لأكاديمية العلوم بڤينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخا للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الإسلامية ، لأنه

(١) Von Kremer : Ibn Chaldûm und seine Kultur-Geschichte der islamischen Reiche.

من بين المؤرخين المسلمين أوّل من خصص فصولا ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم ، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والإدارة وتطورها فى الدول الإسلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب المعاش ؛ ثم عن العلوم والفنون والآداب وأصنافها وأحوالها وتطورها فى العالم الإسلامى وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لأن ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أو لذاتها و إنما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذى هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

ولم يلق هذا الوصف الذى أسبغه فون كريمر على ابن خلدون تأييدا كبيرا من النقدة . ويقول الأستاذ شميت وهو أحدث من درس ابن خلدون ونقده ، فى التعليق على هذا الرأى ما يأتى :

« اذا وجب مع بعض التحفظ أن نعتبر ابن خلدون مؤرخا للحضارة ، فيحسن أن نتدبر ما اذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيقى سواء فى هذا القسم من مؤلفه أو فى تاريخه السياسى هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره ، لا أن يقدم لنا تطبيقا كاملا للقواعد التى قررها . ذلك أنه فى الفصول الأولى من مقدمته يعالج المسائل التى يختلج بها ذهنه ، بمنتهى الإفاضة ، كأصول النقد التاريخى والقواعد الأساسية التى يجب أن يستند اليها البحث التاريخى ؛ و يعالج بالأخص فكرته فى فهم التاريخ ومداها وعواملها ونتائجها المنظمة أو قوانينها . ولقد

كانت هذه الفكرة العظيمة المستنيرة فى فهم التاريخ بأنه سِجِلّ لتطور الانسان الاجتماعى ، مترتبا على العوامل الطبيعية وناشئا عن تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليقة بأن تجعل كتابه « مفتتح عهد جديد » لو لم تكن الحضارة التى وصفها صائرة الى الانحلال العاجل ، واللغة التى كتب بها مجهولة من الأمم الفتيّة التى قدر لها أن تمضى بالمهمة ، بحيث غدا استمرار التقدم العلمى مستحيلا واضطر بناة الحضارة الجدد أن يشقوا طريقهم ببطء دون المعاونة التى كان بوسعه أن يقدمها ، الى بعض المراتب السامية التى تبوأها هو من قبل » (١) .

ويعتبر دى بوير (الهولندى) ابن خلدون فيلسوفا ، ويضعه فى ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن الطفيل ، وينوه بقيمة المنطق فى صوغ نظرياته ؛ ويصفه بأنه مفكر متزن ؛ فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيرا ما يعارض مبادئ الفلسفة العقلية ، بمبادئ الاسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصى أو لاعتبار سياسى . بيد أن الدين لم يؤثر فى آرائه العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطالية الأفلاطونية . وقد أثرت فى تكوين ذهنيته جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ؛ وكذلك المؤلفات التاريخية لأسلافه المشارقة ولاسيما المسعودى ، أيما تأثير . وقد حاول ابن خلدون أن يؤسس نظاما فلسفيا جديدا لم يجل بذهن أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ نظاما فلسفيا ؛ وهو

---

(١) N. Schmidt : Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher (New-York 1930) p. 15-16.

يقول لنا إن هذا النظام إنما هو الحياة الإجتماعية، ومادة المجتمع كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هى أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصّلون أقواتهم، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضا، وكيف يجتمعون فى جماعات كبيرة فى ظل بعض الزعماء، وكيف يُلهمون أخيرا فى ظل حياة الحضر رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دى بوير إن ابن خلدون هو بلا ريب أوّل من حاول أن يشرح بإفاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة، وأن يعرض ظروف الجنس والإقليم و وسائل الإنتاج وما اليها، وأثرها فى تكوين ذهن الإنسان وعاطفته وفى تكوين المجتمع . وهو يرى فى سير الحضارة تناسقا داخليا منظما . ويختتم دى بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتى : « لقد سار أمل ابن خلدون فى أن يخلفه من يتم بحثه فى سبيل التحقيق ، ولكن فى غير الإسلام ؛ فكما أنه كان دون سلف، فكذلك بقى دون خلف » (١) .

— ٢ —

بيد أن النقد الغربى كان أكثر اهتماما بفلسفة ابن خلدون الإجتماعية . وقد لقى ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الإعجاب والتقدير، وعنى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات أقطاب الإجتماع المحدثين .

(١) T. J. de Boer : Geschichte der Philosophie im Islam (1901). pp. 177-184.

ومن هؤلاء النقدة العلامة الإجتماعى لدفيج جمبلوفتش ؛ فهو يخصص لابن خلدون فى مباحثه الإجتماعية فصلا كبيرا ، و يصفه بأنه إجتماعى أو من علماء الاجتماع ، و يتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، و يبين أنه قد سبق فى كثير من هذه الآراء أقطاب الإجتماع المحدثين . فهو مثلا قد اهتدى الى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتوكار لورنتس فى أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جمبلوفتش إن ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الإجتماعى حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الإجتماعية ، وكيف أن هذه الجماعات نفسها إنما هى ثمرة الوسط . وآراؤه فى هذا المقام عن الأجناس الغالبة فى منتهى الأهمية . وفى أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف «قانون التشبه بالوسط» قبل أن يعرفه داروين[١] بخمسة قرون ؛ وفيما يقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان فى الخضوع للقوانين الإجتماعية العامة ما يدل على أنه عرف مبدأ «وحدة المادة» قبل أن يعرفه هيكيل[٢] . ومن المدهش أن نرى كم تتفق الاجراءات التى ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكى يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التى أثبت البحث التاريخى الحديث أن مؤسسى الدول الأوربية فى العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل إن

---

(١) داروين Darwin علامة طبيعى انجليزى اشتهر بمباحثه عن أصول الانسان والأنواع ، ومؤثرات الوسط (١٨٠٩ — ١٨٨٢) .

(٢) إرنست هيكيل علامة بيولوجى وطبيعى ألمانى اشتهر مثل داروين بمباحثه عن أصول الأنواع وله فيها نظريات جديدة (١٨٣٤ — ١٩١٩) .

فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكيافيللى بعد ذلك بقرن الى الحكام فى كتابه «الأمير» . وحتى فى هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفى صبغتها الوقعية الخشنة، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجا للايطالى البارع الذى لم يعرفه بلا ريب . هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنيــة ، كما يقررها أسـاتذة القانون السياسى والقانون الكنسى .

وأخيرا يقول جمبلوفتش : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذى أراد الايطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوربى، جاء مسلم تقى فدرس الظواهر الإجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بآراء عميقــة، وما كتبه هو ما نسميه اليوم : علم الإجتماع »(١) .

وفى نفس الوقت الذى أدلى فيه جمبلوفتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعى ايطالى هو فريرو فأيد وصف جمبلوفتش لابن خلدون بأنه «اجتماعى» ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه فى هذا الميدان(٢) . ويوافقهما فى ذلك الكاتب الإجتماعى الروسى ليڤين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفا «اجتماعيا» .

ودرس مسيو مونييه استاذنا السابق بكلية الحقوق، ابن خلدون

---

(١) L. Gumplovicz: Un Sociologiste arabe au XIV siècle (dans Aperçus Sociologiques) pp. 201-226.

(٢) A. Ferreiro : Un Sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale) 1896.

من الناحيتين الإقتصادية والاجتماعية فى بحثين قويين ، يتنـاول فى أولهما آراء ابن خلدون الإقتصادية[١] وفى الثانى آراءه الاجتماعية ، ويعتبره فيلســوفا واقتصاديا واجتماعيا معـا . ويصف مقدمتـه وتفكيره بمـا يأتى : « انهـا مزيج عظيم من القوانين الكونيـة ، وموسوعة لعلوم العصر ، وتحتوى على أجزاء متفرقه لبحث كامل فى علم الاجتماع . وطريقتها بالأخص بديعة تدلل على ذهن علمى حق . واذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعى أعلى ، فهى مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليليـة للحوادث ، وهى مرآة الواقع . وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتـاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » . ثم يحلل مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الإجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الإجتماعية ، وقوانين التطور الإجتماعية ؛ ويصفها بقوله : « واذا فإن فلسفة ابن خلدون الإجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس إلا لحظة فى مجرى الأشـياء الكونى ، وهو يفنى كما يفنى كل شئ . والحياة كالرّوى ، وكل تغيير يقتضى عكسه ، وكل ارتفاع يعقبـه سقوط ... ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ؛ فهو لا يحكم وإنمـا يشاهد . وهو بذلك يدلل على ذهنية علمية حقة ، وبذا يجب أن يفسح له مكان فى تاريخ الإجتماع الوضعى »[٢] .

---

(١) René Maunier : Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue d'histoire économique et sociale,1912).

(٢) Maunier: Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIV siècle (l'Egypte contemporaine 1917, p. 31)

وينوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذى يطبع فلسفته . ويقول لنا فون كريمر إن ابن خلدون يذهب فى تشاؤمه الى حدود بعيدة، ويقارنه فى ذلك بأبى العلاء المعرى . ويعتقد أن مصدر هـذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الإسلامية فى العصر الذى كتب فيـه ابن خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التى تقلب فيها ابن خلدون، وما بثت الى نفسه من مرارة وخيبة أمل . على أن كثيرا من الناحية الوقعيـة لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة؛ ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصـية كامنة فى أخلاقه، ولكنه صـفة لتفكيره فقط، ونتيجة للبحث والدرس . أما ابن خلدون نفسه، فكان كما تدل حوادث حياته أكثر ميلا الى الثقة والابتهاج والتفاؤل .

ويدرس الكاتب الألمـانى فون فيسندنك نظريات ابن خلدون فى نشوء الدول وانحلالها، ويرى فيه ذهنا وافر الابتكار، ومثـلا أعلى فى التفكير العربى وآخر نجم سـطع فى أفق التفكير الإسـلامى الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخا للحضـارة Kulturhistoriker؛ ويرى فيـه بحق إماما لمدرسـتى مكيا ڤيللى وڤيكو؛ ويحاول أن يطبق نظرياته فى سقوط الدول والأسر على الامبراطورية الألمـانية والدول الأوربية فيقول: «وقد يلوح للالمانى فى الوقت الحـاضر أن هذه الآراء الفياضة بالتشـاؤم ليست من ابتكار مفكر اجنبى، فإن الامبراطورية الألمـانية لم تعمر طويلا ثم ذوى غصنها غضا الى عالم الفناء بسرعة خارقة؛ فهل يجب أن نبحث لتـلك المأساة عن أسباب غير تلك التى أوردها الـكاتب

العربى عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ؛ يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيدا فى المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ؛ ويُطبق ما كان يشعر به أو يدعو اليه على أوربا فى القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه . وتدوى ميول المفكر والسياسى الإفريقى فى معترك الحوادث مهما كانت وجهتها ، دويا يتردد صداه فى عالم أفكار عصرنا »[1] .

— ٣ —

درس الأستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية أخرى هى الناحية الإقتصادية . ويرى كلوزيو بادئ بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذى انحدر منه ، والبلد الذى ولد فيه ، والحضارة التى ينتمى اليها ؛ يمكن أن يوضع فى صف عظماء الرجال الذين يتبوأون فى التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقا جديدة فى ميدان العلوم الإجتماعية . ولكنه لا يجارى مكيا فيللى كمؤرخ ، لأنه لم يعرف أو لم يرد أن يطبق المبادئ التى عرضها فى مقدمته ليشرح أسباب الحوادث التى يقصها فى تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكيا فيللى ومونتسكيو وفيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدى للتاريخ . وتلك حقيقة نوه بها أمارى المستشرق والمؤرخ الايطالى الكبير قبل كلوزيو فوصف ابن

(١) Von Wesendonk : Ibn Khaldûn, Ein arabischer Kulturhistoriker des XIV Jahrhunderts (Deutsche Rundschau, Januar 1923).

خلدون بأنه أول كاتب فى العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » . ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون فى « الجبر الاجتماعى » ويرى أنها موجودة فى تلك العبارة التى يستهل بها ابن خلدون حديثه عن أجيال البدو والحضر وهى : « ان اختلاف الأجيال فى احوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش »[١] .

على أن كلوزيو ينوه بالأخص بنظريات ابن خلدون الإقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربرى العظيم استطاع فى العصور الوسطى أن يكتشف مبادئ العدالة الإجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيديران وماركس و باكونين »[٢] ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن طرق الملك وأنواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدرا للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو فى ذلك كله أن ابن خلدون كان اقتصاديا مبتكرا يعرف مبادئ الإقتصاد السياسى ويطبقها بذكاء وبراعه قبل أن يعرفها البحث الغربى بعصور طويلة . ويختتم بحثه بما يأتى : «إذا كانت نظريات ابن خلدون

---

(١) المقدمة : ص ١٠١

(٢) كونسيديران اشتراكى فرنسى له عدة مؤلفات فى الاشتراكية (١٨٠٨ — ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادى واشتراكى المانى كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة ، ومؤلف أعظم كتاب فى الاشتراكية (رأس المال) ، (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعى واقتصادى روسى ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤ — ١٨٧٦) .

عن حياة المجتمع المعقدة تضعه فى مقدمة فلاسفة التـاريخ ، فإن فهمه للدور الذى يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الإقتصاد المحدثين»[١] .

— ٤ —

ومن أحدث البحوث النقدية فى دراسـة ابن خلدون رسالة للأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا؛ درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسـوف واجتماعى[٢] . ويرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضـع فى صف مؤرخين عالميين مثـل ديودور الصقلى ، ونقولاوس الدمشقى أو تروجوس پومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى ، أو مؤلفيـن من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتيرر وشِلِتسر، هذا مع كونه يتفوق عليهـم سواء فى الانتفاع بالمصادر القديمة أو فى الرواية الأصلية؛ ولو أن ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسى ، لكان أثرا ينبئ عن همة لا تنفد ، وغزارة فى المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدرا نفيسا للرجوع ؛ بل لكان فى عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعـه بكثير عن مستوى رجال مثـل البخارى والمسعودى والطبرى وابن الأثير . على أن حق ابن خلدون فى الشهرة الخـالدة لا يرجع الى تاريخـه بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذى كتبه مقدّمة لتاريخه ؛ فهنا تبدو عبقريته فى روعة

---

(١) S. Colosio: Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun (Revue du Monde musulman ; XXVI - 1914).

(٢) N. Schmidt: Ibn Khaldûn; Historian, Sociologist and Philosopher.

بهائها ، وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون هو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته ؛ وهو بلا ريب صادق حين يقول إن أحدا من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، واذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء أعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم أن نقول إن ابن خلدون كان بحق أول كاتب استطاع أن يعرّف موضوع التاريخ بهذه الصورة ، وأن ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث فى الحقائق التى تقع فى دائرته . بل لم يقل أحد غير ابن خلدون إن التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان . فإذا كان يجدر بنا أن نتوسع فى فهم التاريخ الى هذا الحد ، واذا كان التاريخ علما ، فإن التونسى العظيم الذى ابتكر هذا الرأى ودافع عنه ليس له سلف فيما يظهر ، ومن حقه أن يعتبر أنه المكتشف . وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته وأكثرها طرافة ، وان كان ذهنه النافذ قد شق طرقا جديدة فى نواحى كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون فى دراسة الدول وقيامها وسقوطها أن أسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والأطماع ، والى الأغراض والغايات ، والى قوة الإرادة ، وقوة الذهن لدى الأفراد ؛ ولاحظ أن تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التى تنتمى اليها ، ولكنها تخضع أيضا للظروف الإجتماعيـة العامة . وقد حمله ذلك على أن يبحث العوامل التى تؤثر فى هذه الظروف الإجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى

أنها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ أيضا أن هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالإقليم ، والماء، والأرض، والموقع، والغذاء . وإذاً فمن الضرورى لكى نفهم التطور السياسى ، أن ندرس كل مظاهر الحياة الإجتماعية؛ ولكى نفهم هذه يجب أن نحسب حسابا للعوامل الطبيعية ، ومن ثم كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ، إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الإنسانى، وإذاً فهو علم الإجتماع . ثم يقول الأستاذ شميت إن ابن خلدون رغم طابعه الاسلامى إنما هو فيلسوف مثل أوجست كونت،وتوماس بكل وهربرت سپنسر. وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هِجِل[١] تحليلاً للقضاء والقدر . وإذا كان يذكر خلال بحثه كثيرا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه فى بحثه متفق مع نصوص القرآن .

وأما عن الناحية الاجتماعية، فإن الأستاذ شميت يرى مع معظم النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الإجتماع، ويرى بالأخص مع جمبلوفتش أن الاجتماع وجد قبل أوجست كونت بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب فى تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت، وأنه فيما عالج من خواص العادة والاقليم ، والأرض،

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجتماعى انكليزى ، وله مؤلف شهير فى تاريخ الحضارة الانكليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسپنسر فيلسوف انكليزى ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهجل فيلسوف ألمانى كبير، درس فلسفة الدين والروحيات والالهيات (١٧٧٠ — ١٨٣١) .

والغذاء، قد سبق مونتسكيو وبكل وسپنسر وغيرهم .

وينقل الأستاذ شميت الينا هذه الكلمة عن العلامة الإسبانى التاميرا : « كفى أنه فى القرن الرابع عشر، حينما كانت دراسة التاريخ الأوربية فى منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتى يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كُتب كتاب كالمقدمة ، دُرست فيه وعرضت كل المسائل، التى غدت فيما بعد، أهم مهام المؤرخين المحدثين »[1] .

* * *

ونكتفى بما قدمنا من آراء النقد الغربى فى تراث ابن خلدون وتفكيره؛ ومما تقدم نرى أن النقد الغربى يرتفع بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة من التقدير والإعجاب، ويضع تفكيره بين أرفع وأنفس ثمرات التفكير البشرى .

---

(١) راجع رسالة الأستاذ شميت المشار اليها ص ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٩

الفصل الخامس

ابن خلدون ومكيافيللى

أوجه الشبه بين مكيافيللى وابن خلدون . فلسفة مكيافيللى الاجتماعية كما يعرضها فى كتاب « الأمير » . صلة مباحثه بموضوع السياسة الملكية الذى عالجه العرب . الناحية العملية الجافة فى فلسفته . نماذج من آرائه فى خلال الأمير الأمثل . عنصر القسوة والعنف فى الفلسفة المكيافيللية . التقاء ابن خلدون ومكيافيللى فى مواطن كثيرة . ابن خلدون أستاذ المدرسة المكيافيللية . هل تأثر مكيافيللى بتفكير ابن خلدون أو غيره من المفكرين المسلمين . هل يكون الحسن بن الوزان صلة هذا التأثير . بعد هذا الفرض . المفكران كلاهما مبتدع مبتكر .

— ١ —

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن ، وضع نيكولو مكيافيللى المؤرخ والسياسى الايطالى[1] كتابا يتبوأ فى التفكير الغربى مكانة كتلك التى تتبوأها مقدمة ابن خلدون فى التفكير الاسلامى . ذلك هو كتاب « الأمير » (Il principe) ، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسى والاجتماعى ، تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق . واذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه

---

(١) نيكولو مكيافيللى (Nicolo Machiavelli) كاتب ومؤرخ وسياسى إيطالى كبير . ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فيرنتزا (فلورنس) وتوفى بها سنة ١٥٢٧ ، واشتغل حينا سكرتيرا للسياسة الخارجية فى حكومة فيرنتزا وكلف بعدة مهام سياسية فى إيطاليا وفرنسا والمانيا . ولما عاد آل مديتشى لحكم فيرنتزا سنة ١٥١٢ ، قبض عليه بتهمة =

المادى ، فان بينهما كثيرا من أوجه الشبه المعنوى ، و بين الذهنين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التى تكوّن كل فيها ، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الإجتماعية ، ومن حيث قوّة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ .

ونستطيع أن نرجع كثيرا من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظيمين الى تماثل عجيب فى العصر والظروف السياسية والاجتماعية التى عاش كل منهما فيها . فقد كانت الإمارات والجمهوريات الايطالية التى عاش مكيافيللى فى ظلها تعرض فى إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التى تعرضها الممالك المغربية أيام ابن خلدون ، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها ، وطموح كل منها الى افتتاح الأخرى ، وتقلب إماراتها و رياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكيافيللى بهذه الدول ، وقضى عصرا فى خدمة احداها وهى وطنه فيرنتزا (فلورنس) وانتدب لمهام سياسية مختلفة ، واستطاع أن يدرس عن كثب كثيرا من الحوادث والتطورات السياسية التى تعاقبت فى عصره ، وأن يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير ، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التى عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته .

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقا من المفكر

= التآمر وعذب ثم أفرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر . وعندئذ اعتزل الحياة العامة وكتب عدّة مؤلفات شهيرة منها كتابه «الأمير» وتاريخ فيرنتزا ومقالات عن ليفى المؤرخ الرومانى ؛ وعدّة رسائل سياسية وقطع مسرحية .

الايطالى . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعللها على ضوء التاريخ ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن مكيافيللى يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعا معينة من الدول هى التى يعرضها التاريخ اليونانى والرومانى القديم ، وتاريخ ايطاليا فى عصره ؛ ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذى يحكم الدولة ، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءا صغيرا فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذى يدرس فيه أحوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى فى هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على مكيافيللى تفوقا عظيما ؛ ويبتدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية أعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الإجتماعية ؛ وان كان مكيافيللى من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون فى سلاسة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، و رواء الأسلوب .

كتب مكيافيللى كتابه « الأمير » سنة ١٥١٣ وأهداه الى لورنزو دى مديتشى « الأفخم » أمير فيرنترا ، وهو يشير الى غرضه من وضع كتابه فى قوله للأمير فى خطاب الإهداء : « ومع انى أعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فإنى أعتمد جل الاعتماد على عطفك و رقتك فى قبوله ، فلست أستطيع فى إهدائك خيرا من أن أقدم اليك فرصة لتفهم فى أقصر الأوقات كل ما عرفته

خلال اعوام طويلة، وفى غمار من المتاعب والأخطار» وفى قوله : « فتناول يا ذا الفخامة هـذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذى أرسلها به؛ وإنك اذا قرأته بامعان وتأمل، فسوف تعرف خالص رغبتى فى أن تظفر بهذه العظمة التى يمنّى بها حسن الطالع وتمنّى بها خلالك» [١] . وإذن فقد أراد مكيافيللى أن يقدم بكتابه «الأمير» مرشـدا لأمراء عصره يرشـدهم الى أمثل طرق الحكم ، وأمثل الوسائل لسيادة الشـعوب التى يحكمونها . ومكيافيللى يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القـديم ، وبالأخص من حوادث عصره التى شهدها وخبرها ، ويرتب عليها أحكاما وقواعد عامة كما يرتب ابن خلدون مثل هذه الأحكام والقواعد على دراسته للمجتمع؛ ويبسط مكيافيللى دراسـته فى بحوث موجزة، ويبدأ بالحديث عن أنواع الإمارات، ووسائل اكتسابها، وعن الوسائل التى تحكم بها المدن أو الامارات التى كانت تعيش فى ظل قوانينها قبل أن تغلب، وعن الامارات التى تقوم بالفتـح وكفايات الأمير الشـخصية ، وعن تلك التى تغنم على يد آخرين أو بطريق الحظ ، أو تلك التى تغنم بالغدر والخيانة، وعن الامارات المدنية والدينية، وعن أنواع الجيوش والجنود المرتزقة ، وما يجب أن يعرفه الأمير عن فن الحرب . ثم يتناول بعـد ذلك شخصية الأمير، وما يُحمـد فيه من الخـلال وما يُذم، وعن الكرم والشّـح ، والرأفة والقسوة ، وعن الطريقة التى يجب أن يحفظ بهـا الأمراء وعودهم، وعمـا يجب عليهم لتجنب بغض الشعب واحتقاره، وما يجب عليهم لاكتساب

---

(١) كتاب الأمير The Prince الترجمة الانجليزية طبعة إفريمان ص ٢ و ٣

الشهرة والمجد ، وأخيرا يتحدث عن حُجّاب الأمير (سكرتاريته) وعن وجوب تجنب الملق ، وعن الأسباب التى فقد بها أمراء إيطاليا دولهم ، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع فى سير الشئون البشرية ، ثم يختتم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم .

تلك هى المباحث التى جعلها مكيافيللى قوام فلسفته عن الدولة والأمير . ويبدو بالأخص مما كتبه عن «الأمير» أنه يعالج موضوعا عالجه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، هو موضوع «السياسة الملكية» وهو موضوع ينتظم منذ القرن الثالث الهجرى فى التفكير الاسلامى الى بحث أو علم خاص ، هو علم السياسة على نحو ما بينا فى فصل سابق . وقد رأينا مما تقدم أن «السياسة» كانت تفهم عند العرب فى العصور الأولى بمعنى ضيق جدا هو شرح الخلال الحسنة التى يجب أن يتصف بها الأمير ، والعيوب التى يجب أن يبرأ منها لكى يصلح لرآسة الدولة وتبوئ الملك ، ولكى يستطيع الحكم بأهلية وكفاية . ثم توسع المفكرون المسلمون فى فهم معنى «السياسة» وقسموها الى عدّة أنواع ، وتناولوا «السياسة الملكية» من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الإدارية ، وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية ، وتحدثوا عن الخطط السلطانية . وظاهر ان ما يتناوله المفكر الايطالى من خواص الأمير وخلاله وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . من ذلك ما كتبه ابن قتيبة فى كتاب «عيون الأخبار» والماوردى فى كتاب «الأحكام

السلطانيـة » والطرطوشى فى كتاب « سراج الملوك » والغزالى فى كتاب « التبر المسبوك » ثم ابن الطقطقى فى كتاب « الآداب السلطانية » .
وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناول من أحوال الدول العامة والملك ، إذ يتحـدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والإمامة ، وعن مختلف المذاهب والآراء فى حكم الإمامة ثم عن الخطط السلطانيـة [1] ، وحديثه فى ذلك يمتاز عن حديث أسلافه بما يتخلل بحثه وتدليله من الملاحظات والتأملات الإجتماعية التى لم يوفق اليها باحث قبله .

على أن مكيافيللى يمتاز فى بحثه بروح عملية جافة . و بينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الأمير أو الحاكم كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما يجب أن تكون ، اذا بالمفكر الايطالى ينظر الى الأمير الأمثـل نظرة عملية محضـة . فيصفه كما هو فى الواقع ، ويتصور خلاله المثـلى فيما هو حادث بالفعل ، و يرتب تدليـله ونتائجه على ما أحرز الأمير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل ، دون تأثر بما اذا كانت هـذه الصور والخلال تتفق مع مبادئ الأخلاق المثلى كما فهمت خلال العصور . ومن هنا تستمد فلسـفة مكيافيللى لونهـا القاتم ، وتوصم آراؤه ونظرياته السياسـية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التى جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال للسياسـة الغادرة التى لا ضمير لهـا ولا وازع ، والتى جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الانسانية والأخلاقية . والى القارئ بعض نماذج من تلك الآراء التى طبعت فلسفة مكيافيللى ، وأميره الأمثل

---

(١) راجع المقدمة : ص ١٥٦ و ١٥٨ الى نهاية الباب .

بذلك الطابع الأسود :

١ — « ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك الرذائل التى لا يمكن دونها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة ، ذلك إنه إذا بُحث كل شىء بعناية ، ألفينا أن شيئا يبدو كالفضيلة ، إذا اتبع ، فانه يؤدّى الى خرابه (أى الأمير) وألفينا شيئا آخر يبدو كالرذيلة ، اذا اتبع فانه مع ذلك يؤدّى الى سلامه ورخائه » .

٢ — « ليس أكثر تبديدا للمال من الجود والبذخ ، إذ سرعان ما تعجز عن المضى فيهما ، وتغدو إما فقيرا أو محتقرا ، أو تغدو إذا أردت أن تجتنب الفقر ، جشعا مكروها . ويجب على الأمير أن يحرص قبل كل شىء على ألا يكون محتقرا أومكروها . وإذًا نخير أن يشتهر الأمير بالوضاعة التى تثير اللوم دون بغض ، من أن يرغم الانسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود ، على أن يوصم بالجشع الذى يثير اللوم والبغض .

٣ — كان شيزارى بورجيا يعتبر قاسيا ؛ ومع ذلك فإن قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووحدتها وردّت اليها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل ، لرأيت أنه كان أكثر رحمة من الشعب الفيرنتسى الذى أراد أن يتجنب الشهرة بالقسوة ، فترك «بستويا» حتى خربت ؛ وإذًا ما دام الأمير قادرا على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء ، فليس عليه أن يهتم بوصمة القسوة ، لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذين يفرطون فى استعمال الرحمة ، فتثور القلاقل ، ويعقبها القتل والنهب .

٤ — « وهنا يبدو سؤال : هل خير أن يُحب الانسان من أن يُرهب أو يرهب من أن يحب؟ و يمكن أن نجيب بأنه من المرغوب أن يكون الإنسان محبوبا مرهوبا ، ولكن ما دام اجتماعهما فى شخص واحد غير ممكن ، فإنه لخيرٌ وأكثر سلامة أن يرهب الانسان من أن يحب ، إذا وجب أن يتصف بإحدى الصفتين » .

٥ — « لا يستطيع الأمير العاقل ، وليس عليه أن يحفظ العهد ، إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، و إذا لم يبق للأسباب التى حملته على قطعه وجود » .

٦ — « و إذًا فليس من الضرورى أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التى ذكرتها ، ولكن من الضرورى أن يبدو كأنه يتصف بها ... ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد أن يراعى كل الأمور التى يُقدر الناس من أجلها ؛ لأنه كثيرا ما يرغم لكى يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين . و إذًا فمن الضرورى أن يكون عقله متأهبا ليعمل طبقا لتقلب الريح والحظ » .

٧ — وقال مشيرا الى سياسة ملك اسبانيا فرديناند الكاثوليكى ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : « إنه ينتحل الدين دائما عذرا للقيام بأعمال عظيمة ؛ وقد ثابر بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه » . (١)

---

(١) راجع الترجمة الانكليزية لكتاب الأمير The Prince — ص ١٢٣ و ١٣٠ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٧٨ (الطبعة المشار اليها) .

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكياڤيلليه فى تصوير الدولة والأمير . وهى فلسفة تقوم على الحقائق العملية ، وتحل هذه الحقائق رغم جفائها وروعتها المكان الأول فى بناء الدولة وفى سياسة الأمير . فالنفاق ، والشح والوضاعة ، والقسوة والإرهاب ، والغدر والنكث بالعهد ، وإهدار الإخلاص والصداقة والأمانة والدين ، وما اليها مما ينافى المثل الفاضلة ، وتأباه الأخلاق والإنسانية ، ليس مما تنكره الفلسفة المكياڤيللية ، ولا مما يشين السياسة التى تقوم عليها ؛ ومن ثم كان الأمير والسياسى الأمثل فى نظر مكياڤيللى طغاة لجأوا فى تأييد سلطانهم الى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى بورجيا (دوق ڤالنتينو)[1] . ويتناول مكياڤيللى طرفا من حياة شيزارى بورجيا الذى عرفه واتصل به فى رسالة خاصة ، ويبدى إعجابه بتلك الخطط والوسائل الدموية التى ابتدعها ودبرها شيزارى للبطش بخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدرا وغيله . ومن ثم كان ذلك الطابع الأسود الذى ما يزال يدمغ «السياسة المكياڤيللية» الى عصرنا . بيد أنه من الحق أن يقال إن المفكر الايطالى يبدى فى صوغ فلسفته كثيرا من القوّة والبراعة وبعد النظر ، وان هذه النظريات والمبادئ التى قد يُحكم عليها من الوجهة النظرية الخالصة ،

---

(١) البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا تولى البابوية من سنة ١٤٩٢ الى وفاته سنة ١٥٠٣ ، وابنه شيزارى طاغية رومانيا وبعض الولايات الايطالية الأخرى ، ولد سنة ١٤٧٦ وتوفى سنة ١٥٠٧ بعد خطوب وحوادث عظيمة . واشتهر بالجرأة والغدر والقسوة الرائعة .

كانت وما زالت على كر العصور قوام السياسات الظافرة، وما تزال الى يومنا عنوان السياسة العملية القوية .

— ٢ —

يتناول ابن خلدون كما قدّمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى، و يتفوق على مكيافيللى تفوقا عظيما فى معالجته من الناحية الاجتماعية . و يلتقى المفكران العظيمان فى مواطن كثيرة . مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون فى فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ فى درس أحوال الأمم، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة فى نفوس الشعب، وعن خلال الأمير وتطرفه أو توسطه فيها، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند، وعن منافسة الأمير للرعية فى التجارة والكسب، وعن تطلع الأمير الى أموال الناس وأثر ذلك فى حقد الشعب عليه، وعن تطرق الخلل الى الدولة وامتداد يد الجند الى أموال الرعية، وكذا ما يقوله عن كتبة (سكرتارية) السلطان [١] فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها مكيافيللى أو يقترب منها، سواء فى كتابه الأمير أو فى كتاب آخر له هو تاريخ فيرنترا (Istorie Fiorentine) تتخلله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة [٢] . وقد لا يتفق مكيافيللى مع ابن خلدون فى الرأى أو فى منحى التفكير دائما، ولكن كثيرا مما يقوله المفكر المسلم يتردد

---

(١) راجع المقدمة : ص ٧ و ١٥٧ و ١٥٨ و ٢٣٥ و ٢٣٩ و ٢٤٨ و ٢٠٥ و ١٤١

(٢) قارن ما كتبه مكيافيللى فى موضوعات مماثلة فى كتاب «الأمير» ص ٩٨ و ١٠٨ و ١١٨ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٩ و ١٨٣ وغيرها .

صداه فيما يقوله المفكر الايطالى . فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التى تنـاول مكيافيللى بعده بنحو قرن بعض نواحيها ، وهـو بالأخص صاحب الفضـل الأوّل فى فهم الظواهر الإجتماعية، وفى فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها، وترتيب القوانين الإجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمى الفائق .

قال العلامة الإجتماعى جمبلوفتش : « ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الإجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصـائح التى أسـداها مكيافيللى بعـد ذلك الى الحكام فى كتابه «الأمـير» . وحتى فى هذه الطريقة الجـافة لبحث المسـائل، وفى صبغتها الوقعية الخشـنة ، كان من المسـتطاع أن يكون ابن خلدون نموذجا للايطالى البـارع الذى لم يعرفه بلا ريب» .[1] وقال استفانو كلوزيو مقارنا ابن خلدون بمكيافيللى : « إذا كان الفلورنسى العظيم (مكيافيللى) يعلمنا وسائل حكم الناس فإنه يفعل ذلك كسياسى بعيد النظر؛ ولكن العـلامة التونسى (ابن خلدون) استطاع أن ينفـذ الى الظواهر الاجتماعية كاقتصادى وفيلسوف راسخ، ممـا يحمل بحق على أن نرى فى أثره من سمـو النظر والنزعة النقدية مالم يعرفه عصره»[2] .

وقد نتساءل أخيرا ، هل وقف المفـكر الايطالى على شئ من تراث ابن خلدون واسترشد به، أم وقف على شئ من آثار المفكرين

---

(١) Gumplowicz : Aperçus sociologiques (p. 217).

(٢) Colosio : Introduction à l'étude d'Ibn Khaldoun (ibid).

المسلمين فى موضوع السياسة الملكية وانتفع بها ؟ نعتقد مع العلامة جمبلوفتش أن مكيافيللى لم يعرف حين كتابة « الأمير » شيئا عن ابن خلدون أو عن آثاره ، ولم يعرف من جهة أخرى شيئا من آثار المفكرين المسلمين فى موضوعه . صحيح أن بعض نواحى التفكير الاسلامى كانت معروفة فى ايطاليا قبل مكيافيللى وفى عصره ؛ وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمى الأندلس وشمال إفريقية وبين المجتمعات الفكرية فى ايطاليا ، وكانت آثار إسلامية كثيرة قد ترجمت يومئذ الى اللاتينية . ولكنا لا نلمح فى أثر مكيافيللى شيئا يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أى مفكر مسلم فى موضوعه . وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ وتحليله ، واستقراء الحوادث ، وترتيب القوانين الإجتماعية ، فذلك يرجع كما قدّمنا الى تقارب عظيم بين الذهنين ، والى تماثل فى العصر والظروف التى عاش فيها كل منهما ، والى تماثل فى الخبرة السياسية التى اكتسبها كل منهما ، بخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته . وربما يكون مكيافيللى قد عرف شيئا عن ابن خلدون ومقدمته فى أواخر حياته بعد أن وضع كتابه «الأمير» بنحو عشرة أعوام ، أعنى حوالى سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤ ؛ ففى ذلك الحين كان الكاتب الأندلسى المتنصر ، الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليون الإفريقى Léo Africanus يقيم فى رومة ويتجول فى شمال ايطاليا . وهو غرناطى ولد حوالى سنة ١٤٩٥ م ، ونشأ فى فاس وتولى لبلاطها بعض المهام السياسية ؛ ثم حج الى مكة سنة ١٥١٦ ، وعاد بطريق قسطنطينية ؛ وفى أثناء ركوبه البحر

الى المغرب أسرته عصابة من لصوص البحر الصقليين ، فأُخذ الى رومة حيث نصّره البابا باسم «يوهانس ليو» أو يوحنى الأسد. وفى رومة انقطع للبحث والتأليف، ووضع قاموسا عربيا لاتينيا، وألف كتابه الشهير فى وصف إفريقيـة ، وترجمه بعـد ذلك الى الإيطالية . وكان فى مدينـة بولونيا بشمال ايطاليا على مقربة من فيرنتزا سنة ١٥٢٤ حسبما يقرر فى خاتمة قاموسه اللاتينى الذى توجد منه نسـخة بخطه فى الإسكوريال[١] . ومن الممكن بل لعـله من المرجح أن يكون ابن الوزان قد التـقى بمكيافيللى وعرفه فى رومة باعتباره من أعلام التفكير والكتابة يومئذ . وكان مكيافيللى بالفعل فى رومة سنة ١٥٢٥ ، قصدها ليرفع كتابه «تاريخ فيرنتزا» الى صديقه وحاميه البابا كلنمضوس السابع (چوليانو دى مديتشى) . ولو صح هذا اللقاء والتعارف لكان ثمة مجال للقول بأن مكيافيللى قد وقف على شئ من آثار التفكير الاسلامى التى لا بد أن يكون ابن الوزان قد أذاعها وتحدث عنها بين أصدقائه الإيطاليين؛ ومن المرجح أن يكون ابن خلدون فى مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل هذا الحديث، لاسيما وقد كان صيته ما يزال قويا ذائعا فى إفريقية والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس . على أنه مهما كان من شأن هذه الفروض، فلسنا نستطيع أن نقول إن مكيافيللى قد انتفع فى صوغ فلسـفته السياسية والاجتماعيـة بشئ من آثار التفـكير

---

(١) راجع معجم المكتبة العربية الاسبانية فى الاسكوريال Casiri : Biblio-theca Arabo - Hispana Escurialensis (I. P. 172). ففيه تنقل هذه الخاتمة .

الاسلامى ؛ ولسنا نلمح فى كتابه أثرا لهذا التفكير . ومكيافيللى ذهن مبتدع مبتكر بلا ريب ، كما كان ابن خلدون ذهنا مبتكرا مبتدعا ، وقد شق كلا المفكرين العظيمين طريقه لنفسه ، وألهم وحى نفسه ؛ وكان كتاب « الأمير » فتحا عظيما فى تفكير عصر «الإحياء» الأوربى (الرينصانص) كما كانت مقدمة ابن خلدون فتحا عظيما فى التفكير الإسلامى .

الملحق الاول

بيان فهرسى عن كتاب العبر

ظهور القطع الأولى من مؤلف ابن خلدون . نشر المقدمة فى باريس ومصر . إخراج بولاق للمؤلف كله . صيغة الإهداء فى النسخة المتداولة ومدلولها . ما ترجم من أثر ابن خلدون الى مختلف اللغات . ما يوجد من مخطوطات أثره .

— ١ —

لبث تراث ابن خلدون رغم أهميته ونفاسته حتى منتصف القرن الماضى محتجبا، بعيدا عن التداول العام إلا فقرات ومقتطفات صغيرة من مقدمته وتاريخه تنشر ترجمتها من وقت لآخر. وفى ذلك الحين بدأت العناية بنشر آثاره؛ فنشرت المقدمة، ونشرت قطع مختلفة من تاريخه . وظهرت أول قطعة كبيرة من آثاره بباريس سنة ١٨٤١ حيث نشر المستشرق نؤيل دى ڤرچيه مقتطفات من « كتاب العبر » تتضمن تاريخ بنى الأغلب ودولة الاسلام فى صقلية مع ترجمة فرنسية بعنوان Hist. de l'Afrique sous les Aghlabites et la Sicile sous la Domination muslmane. وفى سنة ١٨٥٨ ظهرت مقدمة ابن خلدون فى باريس فى ثلاثة مجلدات، أصدرها المستشرق كاترمير عن نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية، ضمن المجموعة المسماة « مذكرات ومقتطفات من مخطوطات مكتبة الملك » Notices et Extraits des manuscrits de la Bibliothèque du Roi. وهى تشمل ضمن هذه المجموعة ، المجلدات السادس عشر الى

الثامن عشر . وفى نفس ذلك التاريخ نشرت المقدمة بمصر لأول مرة (سنة ١٢٧٤ هـ — ١٨٥٨ م) بعناية الشيخ نصر الهوريني عن نسخة مخطوطة أخرى، تتضمن بالديباجة فقرة إهداء للمؤلف لم ترد بنسخة باريس . ونشرت المقدمة فى بيروت سنة ١٨٧٩، ثم نشرت بعد ذلك مرارا . وعنيت مطبعة بولاق بإخراج أثر ابن خلدون (كتاب العبر) كله، فظهر تباعا فى سبعة مجلدات كبيرة، وتم طبعه سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م) واعتمد فى إخراجه على عدة نسخ مخطوطة كلها ناقصة [1]، ولكنها تكمل بعضها بعضا، ونقلت المقدمة عن نفس النسخة المخطوطة التى نقلت عنها طبعة سنة ١٢٧٤ هـ فجاءت متضمنة فقرة الإهداء المشار اليها . ولهذه الفقرة أهمية خاصة فى التعريف عن تاريخ النسخة التى تضمنتها وعن قيمتها؛ ففيها يتقدم المؤلف بإهداء هذه النسخة من كتابه الى خزانة «مولاه السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبى الحسن من بنى مرين» ويقول إنه «بعثها الى خزانتهم الموفقة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم» . والسلطان عبد العزيز المذكور هو ابن أبى العباس بن أبى سالم بن السلطان أبى الحسن؛ تولى عرش المغرب الأقصى سنة ٧٩٦ هـ، وتوفى فى صفر سنة ٧٩٩ هـ . واذًا فقد وقع إهداء ابن خلدون كتابه للسلطان عبد العزيز فى هذه الفترة ٧٩٦ — ٧٩٩ هـ . وقد انتهى البحث الحديث بأن وقف

---

(١) يوجد من هذه النسخ الناقصة بدار الكتب اثنتان، وتوجد أيضا بها مجلدات مخطوطة متفرقة من كتاب العبر . وتحفظ هذه النسخ بالأرقام الآتية : ١٨٥ م تاريخ، و ٦٥ م تاريخ، و ٦٦ م تاريخ، و ١ ش .

على مجلدين من هذه النسخة التى بعثها ابن خلدون الى فاس لا زالا بمكتبة جامع القرويين ؛ عثر بهما الأستاذ ألفرد بل Bel وذكرهما ضمن الفهرس الذى وضعه لمكتبة جامع القرويين، وأشار الى أن أحدهما يحمل صيغة الوقف[١] . وقد عاد الأستاذ ليفى بروفنسال فحقق صحة هذا الاكتشاف، ونشر بحثه فى المجلة الاسيوية مشفوعا بصورة فتوغرافية لصيغة الوقف المرقومة على غلاف أحد المجلدين؛ والمجلدان هما الثالث والخامس (مما يقابل نسخة بولاق تقريبا) . والخامس يحمل صيغة الوقف، وتاريخ هذا الوقف هو ٢١ صفر سنة ٧٩٩ هـ . وفى نهاية هذا المجلد إشارة من الناسخ تفيد أنه «نقل من الأصل المعتمد لمؤلفه»[٢] . وقد وقع إهداء ابن خلدون لهذه النسخة فى نفس الوقت الذى أرسل فيه الظاهر برقوق سلطان مصر هديته الى سلاطين المغرب كأثر للصلات التى عمل ابن خلدون على عقدها بين بلاط القاهرة وقصور المغرب ؛ وأرسل ابن خلدون نسخة كتابه هذه الى المغرب مع رسل السلطان الظاهر؛ وتوفى السلطان عبد العزيز فى ذلك الحين . ولكن أنباء وفاته لم تكن قد وصلت بعد الى القاهرة . ومن المحقق أن هذه النسخة المهداة الى بنى مرين سادة ابن خلدون وحماته الأوائل كانت من أتم نسخ

---

(١) Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la mosquée d'El Quaruiyin à Fez (p. 6).

(٢) J.Asiatique (Juillet - Sep. p. 163 - 164.) . وقد نشرت جريدة الاهرام صورة لهذه الوقفية (بعددها الصادر ٣ مارس سنة ١٩٣٣ بصحيفة الصور) وقدم اليها الصورة السيد عبدالحى الكتانى أحد أكابر علماء الغرب أثناء زيارته للقاهرة .

الكتاب وأوفاها، إذ كان قد مضى على كتابة ابن خلدون نسخة كتابه الأولى نحو خمس عشرة سنة؛ وقد عنى ابن خلدون أثناء مقامه بالقاهرة فى هـذه الفترة بتنقيح كتابه وتهذيبه والزيادة فيه؛ وشمل التنقيح والزيادة جميع أقسام الكتاب، ووصل ابن خلدون فى تدوين أخبار الحوادث المعاصرة فى كثير من المواطن الى سنى ٧٩٥ و ٩٦ و ٩٧ هـ حسبما بينا فيما تقدم . وتوجد بدار الكتب (بمجموعة مصطفى باشا) نسخة مخطوطه من كتاب العبر فى عشرة مجلدات تنقص عن النسخة الكاملة مجلدا (المجلد السابع من المطبوع)، وتحتوى مقدمتها على صيغة الإهداء المشار اليها (ورقة ٤ من المجلد الأول) مما يدل على أنها قد تكون صورة مطابقة للنسخة الأصلية المهداة الى بلاط فاس[١] .

والخلاصة أن نسخة « كتاب العبر» المتداولة التى أصدرتها مطبعة بولاق عن النسخ الخطية المشار اليها، هى رغم كثرة أغلاطها المطبعية، من أتم النسخ التى انتهت الينا من أثر ابن خلدون .

— ٢ —

بعد أن نشرت مقدمة ابن خلدون فى باريس بعنايه العلامة كاترمير سنة ١٨٥٨ ؛ جاء البارون دى سلان فترجم المقدمة الى الفرنسية، وهو العمل الذى كان يعتزمه كاترمير وحالت وفاته دون إتمامه . وظهرت ترجمة دى سلان الفرنسية بين سنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٨ فى ثلاثة مجلدات كبيرة بعنوان Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun (Par M. de Slane Membre de l'Institut).

---

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم (٦٥ تاريخ م) .

واتبع دى سلان فى ترجمته النص الذى نشره كاترمير إلا فى مواطن قليلة جدا قارن فيها المخطوطات المختلفة . وصدر المقدمة بترجمة "للتعريف بابن خلدون" وأكمل ترجمتــه حتى وفاته بالاعتماد على المصادر المصرية المعاصرة (المقريزى والعينى وابن قاصى شهبه) . ويشــكو دى سلان من أســلوب ابن خلدون ويقول إنه ركيك وغامض فى أحيان كثيرة، و إنه يستعمل الضمائر بكثرة تحول احيانا دون فهم مقاصده(١) والواقع أنه يوجد فى ترجمة دى سلان غموض كثير؛ ولكنا نعتقــد أن ذلك لا يرجع دائمــا الى غموض النص الأصلى، وإنما يرجع فى معظم الأحيان الى ضعف الترجمة ذاتها .

كذلك نشر دى سلان قسما كبيرا من تاريخ ابن خلدون هو المتعلق بتــاريخ الدول البربرية فى مجلدين كبيرين بعنوان « تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب» (الجزائر سنة ١٨٦٣) ؛ ورجع فى نشر هذا القسم الى عدة نسخ مخطوطة، واختصر فيه فى بعض المواضع وأضاف اليه مقتطفات لمؤلفين آخرين . ونشر ترجمة فرنسية لهذا القسم فى أربعة مجلدات ظهرت بالجزائر سنة (١٨٥٢ — ١٨٥٦) بعنــوان Hist. des Berbères et des Dynasties musulmanes de l'Afrique Septentrionale.

وترجمت المقدمة الى التركية منذ أوائل القرن الثامن عشر، ترجمها اليها پيرى زاده المتوفى سنة ١٧٤٩ م (١١٦٢ هـ) . وترجمت الى الفرنسية أجزاء أخرى من التــاريخ، منها قطعة عن تاريخ بنى زيان Hist. de Benou Zayan ، ترجمها دوزى، وقطعة عن بنى

---

(١) راجع ترجمة دى سلان — ج ١ ص ١١٢

الأحمر مـلوك غرناطه Hist. des Benou al Ahmar Rois de Grenade ، ترجمهـا جودفرى دموميين ، وقد نشرتا فى المجـلة الأسيوية (Journal Asiatique) وقطعة مطولة أخرى عن ملوك بنى عبـد الواد ترجمها المستشرق بل ، وظهرت بالجـزائر فى ثلاثة مجلدات بعنوان Hist. des Beni Abdel-Wad Rois de Telemçan

وترجمت قطع الى الألمـانية من ذلك ماترجمه تيزنهاوزن عن تاريخ بنى عقيل : Die Geschichte der Oqailiden-Dynastie. وفصول عن تاريخ احتلال الفرنج لشواطئ سوريا أيام الصليبيين بقلم تورنبرج : Geschichte der Franken, welche die Kûsten und Grenzlaender Syriens besetzen. وفصول أخرى مختلفة من المقدمة والتاريخ بقلمى فون هامار وفون كريمر . وظهرت أخيرا ترجمة المـانية لآراء ابن خلدون عن الدولة بقـلم ادوين روزنتال مقرونة بشروح وتعليقات تحت عنوان : Die Gedanken d'Ibn Khaldoun ueber den Staat.

وترجمت قطع من المقدمة الى الايطاليـة إحداها عن الكتابة العربية بقلم لانشى وأخرى عن تاريخ صقلية بقلم العلامة أمارى . وترجم الجزء المتعلق بتاريخ اليمن الى الانكليزية بقـلم كاسلس كى (Kay) وشذور أخرى بقلم الأستاذ فلنت . وترجمت أيضا قطع مختلفة أخرى الى اللاتينية والروسية .

— ٣ —

وتوجد نسـخ مخطوطة من المقدمة فى مكاتب برلين وليـدن وفلورنس ولننجراد والمتحف البريطانى وميلان وميونيخ وباريس

وفينا . وتوجد نسخ مخطوطة من المؤلف كله أو بعضه بالقاهرة بدار الكتب المصرية (وبها نسختان كاملتان تقريبا و بعض مجلدات مفردة) ومكتبة الأزهر . وفى قسطنطينية فى عثمانية ويني جامع وابراهيم باشا . وفى فاس بجامع القرويين . وفى المتحف البريطانى وأكسفورد وتورينو وتبنجن وتونس والجزائر . وتوجد نسخة كاملة من التعريف أو الرحلة بدار الكتب المصرية (مصطفى باشا) ، وعنها نقلت بعض المكاتب نسخا فتوغرافية . وهى الوحيدة فيما يظهر[1] .

---

(١) راجع وصف هذه النسخ الخطية وتواريخ كتابتها فى فهارس هذه المكتبات .

الملحق الثانى

ثبت بالمصادر

— ١ —

المصادر العربية

كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون)، والمقدمة .

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (مخطوط) .

مقدمة ابن خلدون، طبعة كاترمير (باريس سنة ١٨٥٨) .

مقدمة ابن خلدون، (مصر) سنة ١٢٧٤ هـ .

اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .

رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط) .

أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر (مخطوط) .

المنهل الصافى لابن تغرى بردى (مخطوط) .

الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى (مخطوط) .

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .

السلوك فى دول الملوك للمقريزى (مخطوط) .

الخطط والآثار للمقريزى .

إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى (مخطوط) .

عجائب المقدور لابن عربشاه .

تاريخ مصر لابن إياس .

حسن المحاضرة للسيوطى .

الأحكام السلطانية للماوردى .

قوانين الوزارة للماوردى .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن الطقطقى (جريفزولد سنة ١٨٥٨) .

سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى و بهامشه التبر المسبوك للغزالى .

المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن محمد .

عيون الأخبار لابن قتيبة .

رسائل إخوان الصفا .

آراء أهل المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى .

صبح الأعشى للقلقشندى .

مصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان .

— ٢ —

المصـــادر الغربيـــة

هذا وننشر فيما يلى ثبتـــا بأهم المراجع والبحوث النقـــدية التى ظهرت عن ابن خلدون وتراثه بمختلف اللغات الأروبية :

Von Hammer-Purgstall : Ueber den Verfall des Islams nach den ersten drey Jahrhunderten der Hidschrat (1812).

A. von Kremer : Ibn Chaldûn und seine Kulturgeschichte der islamischen Reiche ; Wien 1879.

L. Gumplowicz : Ibn Khaldun, ein arabischer Soziologe des 14. Jahrhunderts ; in Sociologische Essays.

T. J. de Boer : Ibn Chaldun : in Geschichte der Philosophie im Islam ; Stuttgart 1901. p. 177-84.

Lewine : Ibn Chaldûn, ein arabischer Soziologe des XIV. Jahrhunderts. (بالروسية)

Von Wesendonk : Ibn Khaldun, ein arabischer Kulturhistoriker des 14. Jahrhunderts, (Deutsche Rundschau Januar 1923) والحقت ترجمتها العربية بقـــلم محمد عبد الله عنـــان بكتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

Müller : Der Islam ; II. p. 668 ff.

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur; II, p. 243. ff.

Wuestenfeld : Geschichteschreiber der Araber No. 456.

Rosenthal: Ibn Khalduns Gedanken über den Staat; München 1932.



Encyclop. de l'Islam : art. : Ibn Khaldoun par Alfred Bel.

Biographie Universelle t. XX. art. Ibn Khaldoun par S. de Sacy.

Schulz : Ibn Khaldoun ; (art. au Journal Asiatique 1825).

Reinaud : Ibn Khaldoun : dans Nouvelle Biographie Générale (1858).

De Slane : Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun.

S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun. (Revue du monde musulman XXVI, 1914.)

René Maunier : Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue d'histoire économique et sociale, 1912.)

R. Maunier : Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIVème siècle ; (l'Egypte contemporaine, 1917, p. 31.)

Taha Hussein : La philosophie sociale d'Ibn Khaldoun.

وترجمتها العربية : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بقلم محمد عبد الله عنان .



Graberg de Hemsoe : Account of the great historical work of the african philosopher Ibn Khaldoun. (Transactions of the A. R. S. 1833).

R. Flint : Historical philosophy, Edinbourgh 1893. p. 157 ff.

N. Schmidt : Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher, New York 1930.



Ferreiro : Un sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale anno III Vol. VI. Fasc. 4. 1886).

ورجعنا أيضا الى الكتب الآتية :

N. Machiavelli : The Prince.

„ : Florentine History.

Aristotles' : Politics.

Dozy : Recherches sur l'Hist. et la Littérature d'Espagne au moyen âge.

Casiri : Bibliotheca Arabo- Hispana Escurialensis.

فهرس

الكتاب الأوّل

حيـاة ابن خلدون

---

١ — فى المغرب والأندلس

٧٣٢—٧٨٤ هـ ، ١٣٣٢—١٣٨٢ م

صفحة

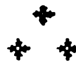
٢ — ابن خلدون في مصر

٧٨٤—٨٠٨ هـ ، ١٣٨٢—١٤٠٦ م

الكتاب الثانى

تراث ابن خلدون الفكرى والاجتماعى

مـــلاحق



تم طبع كتاب "ابن خلدون" بمطبعة دار الكتب
المصرية فى يوم الأحد ١٦ رجب سنة ١٣٥٢
(٥ نوفمبر سنة ١٩٣٣) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣/٢٤/٣٠٠٠)